القسم الثاني

صور من البطولة الإسلامية

أسد الله وأسد رسوله

حمزة بن عبد المطلب

أولئك هم أعداء الإسلام وأعداء الرسول ، قد اجتمعوا فى ساحة الكعبة يتذاكرون أمره ويتندرون به ويركبونه بالـمَجانة ..

أولئك هم قد غَشّى الجهل أفئدتهم ، واستغرق العناد قلوبهم ، وخامر نفوسهم الشيطان، فلم يجدوا إلا أكرم الخلق وأرفع عباد الله قدراً يتخذون منه سبيلاً للهو ومركبًا للتسلية ..

وهذا أبو جهل يتوسطهم بهذه السحنة الجافية واللحية الشوهاء ، يحدثهم عن مساءاته للنبى الأعزل الكريم محمد ، ويفخر بينهم بما أنزل به من ضُر وما دبَّر له من كيد ..

وهؤلاء هم يستمعون إليه فى شىء من الرضا وشىء من العجب ، وإن شيئًا من السخر ليمر بقلوبهم من هذا الرجل الجلف البغيض الذى يغريه كرمُ محمد وتسامُـحه بالمزيد فى الأذى . وهم يعلمون أن محمدًا إنما يسكت عنه عفافًا عن الأذى وحلمًـا عن الجهل ، ولو قد طاوع نفسه واسترسل مع الغضب لعرف كيف يؤدب هذا المغرور . بل إن بعضهم لينكر من محمدٍ هذا الحلم ويرى أنه ضعف ، لأنهم يعلمون أنه رجل شديد قوى القلب لا يخشى أبا جهل ولا أبا لهب ، ولو أراد لأدبهما ولألزمهما حدودهما ، ولكنه خُلِق صبورًا كريمًـا ، مسرفًا فى الصبر والكرم ، يريد أن يؤدب الناس ويردهم عن الجاهلية بحلمه وكرم نفسه .

وإنهم يتساءلون : ماذا يدفع هذين الجلفين وأمثالهما إلى هذا الإسراف فى اللَّدد مع هذا الفتى الكريم ، وهو لم يؤذ فى يوم أحدًا ولم يمس قريشًا ولا شيئًا من مال قريش بما لايرضيها؟ وقد يضحك بعضهم مما يرويه هذا الكهل الغر أبو جهل ، ويعجبون كيف يرضى لنفسه هذا العبث الذى لا ترضاه قريش من شيوخها ، ويجعل نفسه لعبة فى يد

العابثين الذين يغرونه بمحمد الكريم . وإن بعض عقلاء قريش ليحدثونه فى ذلك يرجون أن يردوه بالحسنى عن أذاه ، ولكن أبا جهل لا يرتد ، لأنه خُلِق جافى الطبع مغلق النفس لا يكاد أدب محمد وحلمه يردانه عن غيه ، ولم يبق إلا أن يؤخذ مرة أخذًا قويًا عنيفًا حتى يرتد إليه صوابه .

وكان محمد يتخذ لنفسه بين الحين والحين مجلسًا عند الصَّفا يحدّث الناس فيه بدينه ويدعوهم إليهبالحسنى ، فإذا لم يجتمع إليه أحد انفرد بنفسه يتأمل الناس ويفكر فى شأنه . فبينما هو جالس يوما إذ مر به أبو جهل ، فأغراه انفراد محمد بالعدوان عليه ـ دأبه فى كل حين ـ « فآذاه وشتمه ، وناله ببعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره ، فلم يكلمه رسول الله ﷺ ، ومولاةٌ لعبد الله بن جُدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرَّة فى مسكن لها تسمع ذلك . ثم انصرف عنه ، فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة ، فجلس معهم . فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه أن أقبل متوشحًا قوسه ، راجعًا من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان إذا فعل ذلك لم يمرَّ على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم ، وكان أعزَّ فتيان قريش وأشدهم شكيمة . فلما مر بالمولاة ، وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته ، قالت له : « يا أبا عمارة ! لو رأيتَ ما لقى ابن أخيك محمد آنفا من أبى الحكم بن هشام : وجَدَه هاهنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ، ولم يكلمه محمد ﷺ » . فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى ، ولم يقف على أحد ، مُعدًّا لأبى جهل ـ إذا لقيه ـ أن يوقع به . فلما دخل المسجد نظر إليه جالسًا فى القوم ، فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجةً منكرة ، ثم قال : « أتشتمه ؟ فأنا على دينه أقول ما يقول ، فردَّ ذلك علىَّ إن استطعت ! » . فقامت رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : «دعوا أبا عمارة ، فإنى والله قد سببت ابن أخيه سبًا قبيحًا » . وتـمَّ حمزة رضى الله عنه على إسلامه ، وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله »(١) .

---

(١) محمد بن هشام ، سيرة الرسول ﷺ (طبعة المطبعة التجارية ، القاهرة ، ١٩٣٨) جـ ١ ، ص ٣١٢ ، ٣١٣ .

هكذا أعلن حمزة بن عبد المطلب إسلامه فى لحظة اشتدت فيها حاجة الإسلام إليه ، وقد أراد الله أن يكون دخوله الدين المجيد على وجه من الشهامة يكشف لنا عن الكثير من نواحى الجمال فى نفسه . فقد كانت نفسه تهوى إلى محمد وما يدعو إليه منذ زمن طويل ، وكان بِطَبعه شابا شهمًا سليم دواعى الصدر ينفق وقته فى الصيد ، شأنه فى ذلك شأن الخليين من ذوى الهمة والنجدة . وكان قد سمع محمدًا يدعو إلى الإسلام ووعَى عنه كلامه وآمن به ، وقرر فى نفسه أن يكون إلى جانبه يدفع عنه بنفسه لو فكرت قريش فى مدافعته وأذاه . وانصرف بعد ذلك إلى صيده ، لأن نفسه لم تكن تطيق السكوت . وقد بَرأه الله شجاعا جرىء القلب ، تشرئب نفسه إلى الحرب والكفاح . وكان يرى قريشًا تتخوف محمدًا، وتحاول أن ترده عن دعواه بالمناقشة حينًا والعنف تارة أخرى ، ولكن هذا العنف لم يَعْدُ أن يكون جلافة تصدر عن حمقى من أمثال أبى جهل وأبى لهب . فلما بلغه أن أبا جهل عدا حده واشتد فى سباب ابن أخيه وصديقه محمد ، تصدى له على هذا النحو العنيف الذى رد أبا جهل إلى صوابه .

ولسنا نعلل سكوت أبى جهل على ذلك وكَفَّه المخزوميين عن التعرض لحمزة إلا بأنه رأى فى عينى حمزة من الغضب والأهبة لرد العادية ما أخافه وأرهبه ، ولو قد نهض المخزوميون لحمزة لعصف بهم عصفًا عنيفًا سيعرفه الناس عنه فى مقبل الأيام ، وربما استطارت بين قريش نيران خصومة لا يأمن أبو جهل وأمثاله مصيرهم فيها ، ففضل السكوت على مضض ، ولعلها صحوة من ضميره بعثت فى نفسه الندم على ما أفحش فى الكلام مع محمد هى التى حفزته على السكوت ، لأن سكوت محمد عنه وتحامُلَه عليه كان حريًّا أن يخجله من نفسه مهما بلغت غلظة نفسه وجلافة ما طبعت عليه .

وكان حمزة عمًّا لمحمد ، ولكنه لم يكن ليَكْبره إلا بأربع سنوات ، فلم تكن الصلة بينهما صلة العم بابن أخيه بل صلة الصديق بالصديق ، فقد نشآ تِرْبَين يمرحان فى نواحى مكة وصبيين تجمعهما دواعى السن والنسب ، ثم انصرف محمد منذ السن الباكرة إلى ما هيأه الله له من الرعى والتجارة ، فى حين انصرف حمزة إلى ما كان أبناء عبد المطلب منصرفين إليه من اللهو حينًا ومن شئون السيادة حينًا .

وكان حمزة أعطف بنى عبد المطلب على محمد ابن أخيه عبد الله ، إذ كان عبد الله قد توفى وحمزة فى السادسة ، فشب وهو يسمع من آله أخبار أخيه الشاب الذى اختطفه الموت على صورة محزنة فى المدينة بعيدًا عن أهله وزوجه وولده ؛ فلما بلغ حمزة مبلغ الإدراك كان من أرقّ خَلْق الله لابن أخيه اليتيم ، ثم رأى منه بعد ذلك ما زاد له احترامًا وحُبًّا : كرمَ نفس ، واستقامةَ خُلق ، فمالت إليه نفسه ، وجمع الله بين قلبيهما . ولا نزاع فى أن محمدًا كان يصطفيه ويفضى إليه بذات نفسه ، قبل أن ينزل عليه الوحى ويبعثه الله نبيًا .

ومصداق ذلك أن خديجة بنت خويلد لما عرضت نفسها على محمد ليتزوجها كان حمزة أول آله سعيًا فى إتمام الزواج ، ولما كانت خديجة « أواسط نساء قريش نسبًا وأعظمهن شرفًا وأكثرهن مالا ، وكل قومها كان حريصًا على ذلك منها لا يقدر عليه » فقد سرّ ذلك حمزة ومضى يعين ابن أخيه وصاحبه عليه ، فخرج معه حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه . وظل بعد ذلك صاحبًا له وصفياً ، لا يكاد محمد يفعل من الأمر شيئًا حتى يحدّث فيه حمزة . ولو قد تعرض محمد وأمره للأذى من أول الأمر لبادر حمزة إلى إعلان إسلامه ، ولكنه كان فتى ذا نشاط وميل إلى الحركة ، فمضى سادرًا فى لهوه البرىء من الصيد ، وتركه محمد لأنه كان يعلم ما تنطوى عليه نفسه من الحب له والاستعداد للكفاح فى سبيله ، لا يخامره الشك فى أنه لا يلبث أن يقف إلى جانبه إذا جد الجد وتحرج الأمر ؛ حتى كان ما كان من أبى جهل وإعلان حمزة إسلامه على ملأ من قريش .

ثم خلا حمزة بعد ذلك إلى نفسه فعجب عجبًا شديدًا ، فإن ابن أخيه محمدًا لأثير على نفسه : لقد رضعا سويا من لبان ثويبة جارية أبى لهب ، وقد قضيا سنوات الصبوة والشباب معا ، وهذا محمد يمتحن ويؤذى ، يحسبه الناس وحيدا لا ناصر له ، وحمزة سادر فى صيده ولعبه ومراحه كأنما الأمر لا يعنيه . ولو قد دعا محمد إلى شر أو إلى معصية لكان لحمزة عذر فى التخلف عنه ، أما وهو يدعو الناس إلى هذا الحق الناصع فكيف السبيل إلى التأخير ؟ وهؤلاء أصحابه الذين بايعوه فى العقبة الصغرى يُبدون من مظاهر الخلق الكريم ما يغرى باتّباعهم وانتهاج سبيلهم ، ففيم التردد ؟ هنا فتح الله قلب حمزة للإيمان ، واصطفاه للجنة والنعيم والجهاد ، فلم يشعر إلا وهو فى طريقه إلى دار أرقم حيث كان

محمد يجتمع برفاقه ، حتى إذا أفضى إلى مجلس الرسول ، فقد بسط كفه وبايعه بقلب صاف كريم وجنان ثابت ، وعاهده على أن يكون نصيره ما عاش .

• • •

أسلم حمزة وبدأت قلوب بنى عبد المطلب تهوى إلى محمد وتطالع بقية قريش بالعداوة ، ولم يخرج عن إجماعها فى تأييد محمد ونصرته إلا أبو لهب عبد العزى ، فقد كان ضيق العقل والصدر لا يكاد إدراكه يعدو ما يرى ، وكان يقول : « يعدنى محمد أشياء لا أراها ، يزعم أنها كائنة بعد الموت ، فماذا وضع فى يدى بعد ذلك ؟ » ثم ينفخ فى يديه ويقول : « تبًّا لكما، ما أرى فيكما شيئا مما يقول محمد ! » . وكان يجد نفسه سعيدًا السعادة كلها إذ تؤكد له امرأة ـ مثل هند بنت عتبة بن ربيعة ـ أنه نَصَر اللات والعزى بهذا الجهل . وبدأ الخوف يسرى فى نفس قريش لهذا الموقف الذى يقفه بنو عبد المطلب منها بعد إسلام حمزة ، وبدأت سادات قريش يتمثلون الخطر الذى يدهمهم من جراء هذا الانفصال ، ولم يعد فى استطاعتهم أن يستصغروا أمر محمد أو يعدوا عليه بالسخر والمهانة كما كانوا يفعلون ، لأنهم باتوا يخشون غضبة حمزة وأمثاله من الشباب الأنوف الزاهر الذى حفلت به الدعوة المحمدية . وبدأوا يبعثون لمحمد الرسل ـ مثل عتبة بن ربيعة ـ يعرضون عليه المال والـمُلك والخيرَ على أن يتخلى عن دعوته هذه ، فكان الرسل لا يكادون يلقون محمدًا حتى تهوى نفوسهم إليه ويعودوا إلى قومهم وبهم شبه السحر ! حتى غلاة القرشيين من أمثال عتبة بن ربيعة الذى عاد من عند محمد مفتونًا أو يكاد ، يرجو قريشًا أن تخلى بين محمد وبين ما يريد ، فكان جوابهم : « سحرَكَ والله يا أبا الوليد بلسانه ! » .

ولكن بنى عبد الدار لم يكن ليرضيهم هذا ، إذ كانوا سادةً فى قريش ينفسون على بنى عبد المطلب ما عسى أن يبلغوه من علو المكانة بهذا الفتى الذى نبغ فيهم ، وكانوا أذكياء لا يكاد يفوتهم صدقُ ما يدعو إليه محمد وخطره ، ومضوا يجادلون محمدا يريدون أن يصرفوا الناس عنه بالمنطق كما كسبهم هو إلى دعوته بالمنطق ، فلم يفلحوا ، وزاد أمر محمد ظهورًا .

ثم كان إسلام عُمَر وما تلاه من اشتداد قريش مع المسلمين ومحاولتها صرفهم عن دينهم الذى آمنوا به ، فكان عمر وحمزة درعى محمد يردان عنه الباغى ويكسِران شِرَّةَ المسىء

وتطاولَ السفيه ، ولولاهما لعصفت قريش بالمؤمنين عصفا ، ولكن خوفها من سيفى عمر وحمزة ردها إلى العقل ، فظلت لا تجرؤ على مهاجمتهم هجوما مسلحا عنيفا ، ولم تكد تدرك منهم على شدة اللدد أمرًا ذا بال .

حتى إذا تأذن الله بالهجرة الكريمة ، كان حمزة وعمر من آخر المهاجرين هجرة ، نصبا نفسيهما درعين لإخوانهما فى الدين ، فلما هاجر حمزة آخى محمد بينه وبين مولاه زيد ، فكان حمزة فخورًا أبدا بأخيه هذا ، وكان هذا آية من آيات الإسلام ، ولو قد تطلع مولى إلى أخوة حمزة فى الجاهلية لعد حمزة ذلك مهانة لا يكاد يمحوها دم ، ولكن الإسلامَ نور ، والنور إذا ملأ القلب أزال نوازغ الجهل والعصبية منها .

* * *

واستقر أمر الرسول فى المدَينة ، وآتاه الله من عون أهلها ونصر من هاجر إليها من أهل مكة ما مكنه من السير بحكومتها وأهلها فى الطريق السوى ، حتى إذا استقر أمر الإسلام واطمأن الرسول على أمره ، وجد الفرصة قد حانت ليبدأ مع قريش ذلك الصراع العنيف الذى انتهى بنصر الإسلام واستقرار أمره فى الجزيرة العربية كلها .

هنا سنحت الفرصة لحمزة للعمل ، وكان الله قد طواه على جندى ذى بأس لا يرهب النزال ، ومحارب ذى حيلة وبصر بشئون القتال ، فلما آن الأوان للإسلام لينتقل إلى دور النزاع المسلح حان الوقت ليفيد من حمزة . وكان رسول الله أول الناس تَفَطُّنًا إلى ملكاته واقتداره ، فعهد إليه فى قيادة أول بعث إسلامى حربى ، فكان حمزة بهذا أول قائد مسلم ، وأول سلسلة طويلة من القادة القادرين الذين حملوا لواء الإسلام جيلا بعد جيل ، ومضوا بالعقيدة الكريمة موفقة منصورة فى مشارق الأرض ومغاربها .

عقد رسول الله أولَ راية فى الإسلام لعمه حمزة بن عبد المطلب ، وأمَّره على بعث صغير من ثلاثين راكبًا ، وسيرهم لكى يلقوا بعثًا تجاريا لقريش كان عائدًا من الشام . ويبدو أن رسول الله كان يرمى من وراء هذا البعث إلى مجرد الاستطلاع وإشعار قريش بقوة المسلمين وتأهبهم لنضال خصومهم ، للقضاء على الشرك بحد السيف بعد أن عجزت الحسنى عن

إقناع المشركين والسادرين فى الغى بالتخلى عن ذلك العناد البغيض الجامد الذى كانوا يجابهون به الإسلام وأهله ، لا يكاد مرور الأيام يزيدهم إلا عنادًا وجهلا .

بعث رسول الله حمزة فى هذا البعث الصغير ليلقى رأس المعاندين أبا جهل بن هشام عند العِيصِ من شاطىء البحر ، لعل أبا جهل يرتدع عن غيه ويرعوى عن هذا السفه الذى كان لا يزال يلقى به المسلمين قبل الهجرة ، وهذا اللدد الذى يعامل به من بقى منهم فى مكة بعد هجرة الرسول إلى المدينة . وليس إلى الشك سبيل فى أن رسول الله لم يكلف حمزة بالقتال ، ولو أمره به لقاتل ، فلم يكن حمزة بالذى يخشى ثلاثمائة قرشى أيا كان العدد الذى معه قليلا . اكتفى بإرهاب أبى جهل وقريش معه ، وقَبل وساطة مَـجْدِىِّ بن عُـمَر الجهنى وعاد إلى المدينة . ولو كان رسول الله قد عهد إليه فى القتال ولم يقاتل لسأله فى ذلك ، ولكن الرسول لم يسأله مما يدل على أن حمزة قام بالمهمة التى خرج من أجلها .

ويبدو أن تعرض المسلمين لعير قريش قد أثار أبا جهل وبعث غضبه ، فمضى يلج فى عنفه على عهده ، ولكنه لم يوفق إلى شىء ، فانطوت نفسه على حسرة وكمد . وفى ذلك يقول شاعر متأخر فى أبيات نسبها إلى حمزة ، وهى ليست له من غير شك ، ولكننا نرويها لأنها تصور جانبًا ساذجًا طريفًا من جوانب هذا النزاع :

فلمـا تـراءينا أناخـوا فعقَّلـوا ... مطايـا وعقلنـا مـدى غرض النَّبـل
فقلنـا لـهـم : حبـل الإله نصيرنـا ... ومـا لكـم إلا الضلالـة مـن حبـل
فثـار أبـو جهـل هنالـك باغيـا ... فخابـوا ، ورد الله كيـد أبـى جهـل
ومـا نحـن إلا فى ثلاثيـن راكبـا ... وهـم مئتـان بعـد واحـدة فضـل

ثم كانت أيام بدر ، ووقف الإسلام وجهًا لوجه أمام الشرك فى أولى مواقعه الكبرى . وكانت قريش لا تزال فى غيها تحسب محمدا وأصحابه طائفة يسيرة ، لا تلبث أن تتفرق إذا حملت عليها قريش حملة رجل واحد . وكان أبو جهل حين وقف يصر على القتال ويهون على قريش أمر المسلمين لا يشك فى أنهم فئة قليلة مستضعفة لا تملك الثبات له ولأمثاله من فحول العرب ، وكلما حاول أحد من أحلافه أن يبصره بخطورة الموقف وبما قد ينزل به

وبقريش من الخسائر زاد فى إصراره ، ومضى يلج فى العداوة ساخرًا من المسلمين ومن محمد : لا يكاد يقيم لهم وزناً أو يخشى لهم أمرا .

فلما كان اللقاء ـ فى اليوم السابع عشر من رمضان ـ ألقت مكة بأفلاذ أكبادها فى حومة الوغى ، كما قال رسول الله . ووقف رجال من قريش وأحلافها ـ كل منهم سيد فى قومه ، ولم يكن أحد فى الجزيرة ليجرؤ على أن يخالف لهؤلاء الفحول أمراً ـ وقف عتبة بن ربيعة ، وشيبة ابن ربيعة ، وأبو البحترى بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطعيمة بن عدى بن نوفل ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وأبوجهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، وسهيل بن حجر ومن إليهم ، ووقف أمامهم شباب المؤمنين ممن كانوا إلى الأمس القريب لا يجرؤون على خلاف أمر لواحد من هؤلاء الشيوخ ، ولكن الإيمان ملأ قلوبهم وأحالهم أسودا لا يكاد يثبت أمامهم أحد .

خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومى من صفوف المشركين ، وقال يسخر من المسلمين: أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأموتن دونه ! وكان الحوض من وراء المسلمين ، يحسب أن أحدًا منهم لن يجرؤ على الوقوف فى سبيله ، وأنه يخترق صفوفهم آمنا أو كالآمن ، فما هو إلا أن برز من الصفوف حتى تقدم له حمزة وضربه بالسيف ضربة قطعت ساقه ، فوقع على الأرض تشخب ساقه دما ، وبلغ به العتو أن أراد الزحف رغم ذلك حتى يصل الحوض ليهدمه ! فلم يمهله حمزة وأجهز عليه . كل ذلك والمشركون ينظرون ذاهلين من جرأة هذا الفتى ، وقد بدأوا يفهمون أن الأمر جد خالص لا هزل فيه ، وعلم أبو جهل أن المسألة ليست مسألة إقامة بهيجة على ماء بدر « تنحر الجزر وتطعم الطعام وتشرب الخمر وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا بعدها .. » .

وخرج عتبة بن ربيعة سيد قريش ، وأخوه شيبة ، وابنه الوليد ، يتحدون المسلمين ليبرزوا لهم من يجرؤ على الخروج من رجالهم ، فأحب بعض الأنصار الخروج لهم ، فرفضوا مبارزتهم فى شيء من الصلف ، وأبوا أن يبارزوا إلا قرشيين ، فندب رسول الله عبيدة بن الحارث وحمزة ابن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب فبرزوا لهم ، فأما على فلم يلبث أن قتل الوليد ، ولم يكد عُتبة يتقدم من حمزة حتى ضربه حمزة فأجهز عليه ، ثم التفت إلى صاحبه عبيدة وقد

ثبت له شيبة فأقبل إليه يعينه فأجهز عليه ، وبهذا عدمت قريش ثلاثة من أنجادها فى بعض ساعة ، وزاد أمرها حرجا .

واحتدم أوار المعركة وثار النقع وتهاوت السيوف ، وهجم المؤمنون هجمة المؤمن الصادق لا يكاد شىء يرده عن سبيله ، وكان حمزة قد علّم نفسه بريشة نعامة ثبتها فى صدره ، فكان طوال المعركة كالأسد الضارى لا يكاد يثبت فى مكان ، لا يرى واحدًا من كبار المشركين إلا انقض عليه انقضاض الصاعقة وأجهز عليه ، ولا يرى واحدًا من إخوانه المسلمين إلا خف لنجدته وأعانه على عدوه ، حتى روع المشركين بنجدته وأوقع الرعب فى قلوبهم . روى عبد الرحمن بن عوف أنه أسرَ أميةَ بن خلف وابنه واقتادهما إلى صفوف المسلمين ، فإنه لسائر بينهما إذ سأل أمية : « مَن الرجل منكم المعلم بريشة نعامة فى صدره؟» فقال عبد الرحمن : « ذلك حمزة بن عبد المطلب ! » فقال أمية : « ذلك الذى فعل بنا الأفاعيل ! » .

وانقضى يوم بدر بنصر حافل للإسلام وأهله ، نصر مؤزر دخل به الإسلام فى دور التوسع ، وانصرف من بقى من المشركين إلى مكة وهم يشعرون أن يوم قريش قد دنا ، وأن جماعة فيها أسود من طراز حمزة وعلىّ لن تغلب على أمرها أبدًا .

* * *

وانطوت قريش على نفسها تكتوى أضالعها بحر المصيبة ، وقد تجلد رجالها ونساؤها تجلدًا يبعث على العجب مما فطر عليه أولئك القرشيون من الصبر والشدة ، وتعاهدوا على ألا يبكوا موتاهم مخافة أن يشمت المسلمين فيهم ، فظلوا على مضض يجالدون الألم ويمنون النفس بالثأر القريب . ذلك أن المصيبة كانت أجل مما قدروا ، فقد قُتل من ساداتهم من قُتل ، وأُسر من أسر ، وذلت القبيلة العزيزة بأسرها ذلا لم يكن ليخطر لأحد من رجالها على بال ، حتى لقد بلغ الألم من بعضهم مبلغاً لم يستطع معه أن يعيش كمدا وحسرة ، وسكنت ريح قريش برهة وإن قلوب أهلها لتحتدم بنار الثأر احتداما . وقد عرف رجالها نفرًا من المسلمين ممن أبلوا البلاء العظيم الكريم يوم بدر ، فجعلوا يترصدون بهم الأيام ، ولم يبلغ حقدهم على أحد مبلغه على حمزة « أسد الله وأسد رسوله » بطل بدر الذى فعل بقريش ورجالها الأفاعيل ، كما قال أمية بن خلف .

وجعلت قريش تستعد ليوم تبلغ فيه ثأرها ، وجعل رجالاتها يمشون إلى بعض يدبرون لهذا الأمر عدته ، وجمعوا أموالاً جسيمة حتى لم يعد أحد منهم ـ رجلاً كان أو امرأة ـ إلا ساهم فى العدة بنفسه أو بماله ، وخرج رجالهم وكماتهم وخلفهم الظعائن يشدون أزرهم ويحرضنهم على القتال ثأرًا لمن لقى مصرعه فى بدر من بعولتهن أو أبنائهن أو إخوتهن . وكانت هند بنت عتبة أشد نساء قريش دعوة لهذا الثار ، أن لقى أبوها وأخواها مصارعهم فى بدر ، وكان حقدها مؤججا على حمزة قاتل أخويها ، واستصحب أهل مكة من قدروا عليه من أوليائهم ، ورصدوا لقتل حمزة ! فلو قال قائل إن نصف من خرج من المشركين كان يطلب ثأرًا عند هذا البطل الكريم ما بالغ ، ولو قد نجا حمزة من أُحُدٍ ولم يلق مصرعه فيها لكان ذلك من معجزات الدهر ، فما ينجو إنسان جرىء القلب يخوض المعارك بجنان ثابت وحوله هؤلاء الأرصاد من كل ناحية .

ثم كان يوم أُحد وما وقع فيه من مخالفة رماة المسلمين لما قرره الرسول الكريم ورجاله من خطة للمعركة ، كانوا خمسين رجلاً يرمون بالنبل يقودهم عبد الله بن جبير ، وضعهم الرسول فى مخرم من مخارم جبل أُحد ليحموا ظهور المسلمين من أن يفجأهم المشركون من خلف . ثم التقى الجمعان وأبدى كماة المسلمين من النجدة ما لا يوصف ، وكان حمزة سيفاً من سيوف الله لا يلقى مشركا إلا صرعه . لقيه أرطأة بن عبد شرحبيل ـ أحد كماة بنى عبدالدار وأحد حملة لواء قريش ـ فقتله ، وعرض له سُباع بن العزى الغبشانى فأجهز عليه، ومضى على عهده يضرب يمنة ويسرة والعيون له رصد ، وكل مشرك موتور يتسقط لحظة يغتاله فيها .

وكان جُبير بن مطعم قد رصد غلامَه وحشِيًّا ووعده أن يعتقه إذا هو أصاب حمزة ، وكان وحشىٌّ عبدًا حبشيًا يجيد رمى الحربة الطويلة ، فلم يكد حمزة يفرغ من سُباع بن عبد العزى، حتى أمكنت الحبشىَّ الفرصةُ ليصوب حربته نحوه ، ثم أرسلها فى عنف ، فوقعت فى ثنة حمزة ، فالتفت حمزة نحوه ومضى إليه ليصرعه ، ولكن الحربة كانت قد تمكنت منه وسال دمه فلم يلبث أن تعثر ووقع على الأرض وأسلم روحه الطاهرة .

وانجلت المعركة عن هزيمة المسلمين . وخرجت هند بنت عتبة تبحث عن قاتل

أخويها حتى إذا عثرت على جثمانه الكريم فقد مثلت به شر تمثيل ، وخرج الرسول الكريم يلتمس عمه الشهيد ، فوجده ببطن الوادى على هذه الصورة المحزنة ، فبكى وملك الحزن نفسه وقال : « لن أصاب بمثلك أبدًا ، لم أقف موقفاً قط أغيظ إلىَّ من هذا ! » ؛ ثم صلى عليه .

ذلكم رجل آمن إيماناً حسناً شاملاً ، عاش لإيمانه وفى سبيله مات ، دخل الإسلام منتصفاً لمحمد ، ومات مقاتلاً فى سبيل الله ، وقد بلغ من تفانيه فى نصرة الدين أن محمدًا سماه : « أسد الله وأسد رسوله » . وقد عاش فى أقسى فترات حياة محمد ، ولم يعرف الحياة منذ أسلم إلا مضطهدًا أو مشردًا أو مجاهدًا ، ولم يمهله الله حتى يرى عز الإسلام بعد فتح مكة ، وحتى يرى رايات الدين ترفرف على الجحافل ماضية لفتح الدنيا ، بل لم يمهله القدر الملاحِقُ حتى ينعم من الراحة لقاء هذا الجهد الكريم الذى بذل .

لقد ادخر الله له جزاءه كله فى الجنة التى جعلها مثوى لأكرم شهداء المسلمين .

إيمــان رجــل

أبو حنيفة النعمان بن ثابت

استقام الملك للعباسيين بعد اثنتين وثلاثين ومائة سنة للهجرة ، ومضوا يثبتون ملكهم وينزعون عن أنفسهم هذا الرداء الذى كانوا يشتملون به طوال أيام الدعوة لكى يكسبوا إليهم عطف المسلمين ، وكانوا إلى هذا الزمان يعلنون ويؤكدون أنهم يَدْعون لسلالة الرسول من فاطمة الزهراء وعلىّ ، وأنهم لا يبغون لأنفسهم سلطانًا ، وأن كل غايتهم إنما هى انتزاع الأمر من الأمويين الغاصبين ورده إلى بيت النبى الكريم ، وصدَّقهم العلويون وأشركوهم فى الدعوة وخلطوهم بأنفسهم ، لفرط ما أبدوه من الحماسة للبيت النبوى وما أظهروه من العداوة للأمويين .

وكان الأمويون رجالا ذوى حزم وبعد نظر ، فمازالوا يتعقبون الهاشميين علويين وعباسيين بالتنكيل والقتل ، لا يكاد يحصل فى يدهم واحد منهم حتى يسلموه للجلاد . ورعب الهاشميون وأشياعهم وطلبوا بطن الأرض تقية وسياسة ، حتى إذا استشعروا ضعف الأمويين واستروحوا انفراط عقدهم وتعدد الثورات عليهم واختلاف بعضهم على بعض وضياع أمرهم بما كان من فتن المضرية والقيسية ، عاود الأمل نفوسهم واستيقظت آمالهم فى الغلب والسلطان ، فعقدوا مجمعًا كبيرًا للهاشميين جميعًا بايعو فيه لمحمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على المعروف بالنفس الزكية ، واعتبروه أولى أهل الأرض بزعامة المسلمين إذا تأذن الله بذهاب ريح الأموية ، وكان فى المبايعين السفاح والمنصور ونفر من بنى العباس ، وتفرق الجمع ومضى كل من اشترك فيه يثيرون الناس سرًا على العباسيين ويدعونهم إلى المبايعة لواحد من أهل البيت أخفوا اسمه خوفًا عليه وضمانًا لنجاح الدعوة.

وكان فى الهاشميين عباسيون أى من نسل العباس ، وطالبيون علويون أى من نسل على ابن أبى طالب ، وكان العباسيون أذكى وأنشط وأحسن سياسة ، فجعل عميدهم محمد بن

على العباسى يوجه أنصاره توجيهًا سياسيًا ماهرًا ، فزعم أن محمدًا بن الحنفية ـ وارث حق علىّ فى الخلافة ـ تنازل له ، وبهذا وجه الدعوة إلى نفسه وإلى أبنائه من العباسيين ، فى حين كان القائمون على الدعوة للطالبيين متهاونين ، فيهم كثير من الكسل والتواكل ، فما هو إلا حين حتى كان كبار الدعاة وأصحاب النشاط من الدعاة يدعون لبنى العباس ، ولم يكتفوا بمجرد الدعوة بل يمموا شطر خراسان حيث كان الإسلام نقيًا ساذجا ، وحيث قلوب الناس متطلعة إلى المساهمة فى سياسة الدولة الإسلامية . واشتد ساعدهم بهذا الشاب العبقرى أبى مسلم الخراسانى ، فلم تلبث الدعوة أن أصبحت انقلابًا كبيرًا : جيَّش أبومسلم من الناس جيوشا ، وقضى على خلافة الأمويين ، وبايع لعبد الله المعروف بالسفَّاح أول خلفاء بنى العباس .

وكان العباسيون يداورون العلويين طالما كان الأمر أمر دعوى ومحاولة ، ولكن السلطان استقام لهم آخر الأمر بحد السيف ، ومادام السيف فى يمينهم فما حاجتهم إلى التماس القوة من عطف الناس ؟ وما حاجتهم إلى مداورة العلويين وخداعهم مادام فى استطاعتهم أن يأمروا فيُطاعوا وأن يرغبوا فيجابوا ، ومادام وراءهم الجيش الذى يلقى الرهبة فى نفوس الخصوم ، والمال الذى يسكت الساخط ، ويملأ فم الغاضب ، ومادام لهم من هيبة السلطان وامتداد الملك وعتو الجبروت ما لا يستطيع معه إنسان أن ينهض لهم مسائلا ، أو معارضًا ؟ وما يحوجهم إلى محاسنة العلويين أو مراعاة شعورهم وشعور من ينضوى تحت جناحهم ؟ من هنا لجأوا إلى العنف الذى كانوا يأخذونه على الأمويين ، ومضوا يتعقبونهم بالأذى ، فلا يكاد أحدهم أو داعية من دعاتهم يتحرك حتى تأخذه السيوف . فهذا محمد النفس الزكية رأس العلويين وأعظمهم قدرًا يثور فى المدينة ويؤازره أخوه ابراهيم فى البصرة، فماهو إلا أن يتوجه إليهما عيسى بن موسى فى قوة عباسية حتى يتفرق عنهما الناس ويسقطان فى الميدان على أهون سبيل ، وهذه قلوب الباقين من العلويين ترتعد فرقا من العباسيين وسيوفهم ، وأولئك هم المسلمون جميعًا يقبلون إلى بغداد يبايعون ويعلنون الخضوع رهبة وطواعية .

ولكن المنصور كان يعرف أن المال إلى زوال ، وأن الجيوش كالسلع تشترى ببدر الذهب وساحر القول ، وأن هذه البيعة القائمة لا تثبت إلا إذا أيّدها قادة الفكر وأصحاب المكانة

عند الناس من ذوى العلم والمعرفة . وقد حفل العصر بنفر من أعظم المسلمين علما وفقها فيهم سفيان الثورى ، وشريك النخعى ، وابن أبى ليلى ، وداود بن أبى هند ، ومالك بن أنس ، وأبو حنيفة . وكان مالك وأبو حنيفة أعلم أهل ذلك الزمان ، وقد اجتمعت إليهما قلوب الناس ، وكان المنصور يعلم أنهما لا يرضيان عنه أو عن سياسته ، فقد بلغه أن الإمام مالكا أفتى بنقض بيعة المنصور ، وقال لأهل المدينة : « إنما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين » . ولم يكن أبو حنيفة أقل كراهية لأمر المنصور من مالك ، ولكنه ظل صامتًا لايتكلم، وكان يقيم فى العراق ، وقد اجتمعت إليه قلوب الناس ، فكان لابد من كسبه وطيِّه فى الأمر الجديد .

* * *

كان الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت يمضى إذ ذاك من الخمسين إلى الستين على مهل، وكان قد قضى هذا العمر الطويل فى دراسة متصلة وتفكير دائم فى شئون الدين الحنيف . وكان الدين إذ ذاك فى أول أمره لم تتقرر أصوله ولم تثبت فروعه على هذا النحو الثابت المنظم الذى نجده عليه اليوم : كانت الفرق الدينية عشرات لكل منها رأيها ومذهبها ، وكان المفكرون يقضون حياتهم فى جدل حول آيات القرآن ودرر الحديث ، وكان الطامعون فى القيام بأمر المسلمين فرقا وأحزابًا تصطرع فى السر والعلن ، كل يمنِّى نفسه ببردة الخلافة وصولجان الملك .

وكانت مساجد البصرة والكوفة وبغداد والفسطاط ميادين حرب فكرية لا تكاد تخبو فى رحابها حدة المناقشات بين هذه الطوائف كلها ، فكنتَ إذا أفضيت إلى مسجد الكوفة مثلاً رأيت عجبًا : هذا محدث قد التف الناس حوله جعل يروى أحاديث يؤكدها بالأسانيد ثم يفسرها تفسيرًا ساذجًا قصيصًا لطيفًا ، وهذا معتزلى يؤكد للناس أن الأمر كله أمر عقل وتفكير ، وأن الإنسان ينبغى أن يؤمن بعقله وقلبه معًا ، لا يقبل شيئاً قضية مسلمة ولا يستنكر شيئاً إلا إذا دله العقل على أنه مستنكر حقًا ، وهو لا يتحرج من تناول آى الذكر الكريم بهذه الجرأة وهذه الحرية . وهذا فتى من سامعيه ينهض للرد عليه ولا يلبث أن يرميه بالكفر ، وتشتد المعركة بين الاثنين ، ويتعصب لكل منهما فريق حتى تصبح حلقة

الدرس وكأنها ميدان قتال . وعلى مقربة منها قدرى يؤكد للناس أن الحياة كلها تقدير من الله ، وأن الإنسان فيها مسوق لا رأى له ولا إرادة ، ومن ثم يشكك الناس فى العقاب والثواب وفى قيمة الدين كله . وهناك مرجىء يسخر من هؤلاء وهؤلاء ، ويقول : « يا قوم أتعبتم والله أنفسكم ! هلا تركتم الناس لخالقهم وأرجأتم الحكم إلى أن يقضى الله قضاءه» وهكذا ... عالَم حافل ، فيه المسلم المتشدد ، والمسلم الهين الذى يعجب ممن يرون بأسًا فى كأس نبيذ ! وفيهم المجوسى ، وفيهم المتآمر الخطر الذى يبطن دعوة خطرة وينتهز الفرص ويتخير فرائسه بين هذه الآلاف .

فى هذا الوسط المضطرب الحافل نشأ أبو حنيفة ، ونما وترعرع فى أيام الأمويين ، ورأى دولتهم تهوى وشهد بعينه مصارع رجالهم ، وقامت الدولة العباسية بين سمعه وبصره فتفاءل بمقدمها خيرًا ، لأنه كان مولى من أصل فارسى ، وكان الموالى لا يأمنون على أنفسهم . ولو أراد أبو حنيفة شيئًا من خير الدنيا من العباسيين لما ترددوا ، ولكنه كان رجلاً من طراز فريد ، كان يعلم أن كل خير يأتى عن يد السلطان هباءٌ لا غناء فيه ، وأن خير الناس من ظل فى غمار الناس خادمًا ناصحًا ، وكان إلى ذلك بعيد النظر شديد الحيطة لا يغامر بكثرة الكلام ولا يتسرع فى الحكم على الأشياء ، فأقام يرقب الدنيا تجرى أمام بصره مراقبة من يدرى ويفهم .

لعل أهم ما كان يميز أبا حنيفة عن بقية أهل عصره هو هذا الفكر المرتب القوى الذى يتناول الأمر من جميع نواحيه ، ولا يزال يستقصيه حتى يصل إلى أغواره ، ولسنا نجد مثالاً لهذا أحسن من موقفه من الحياة ، فقد كان يفهم أن الحياة ليست ديناً صرفا ولا تفكيرًا خالصًا ، وإنما هى كذلك سعى إلى الرزق وجهد فى سبيل العيش الكريم ، فكان على انصرافه إلى شئون الدين لا يهمل أمر معاشه . كان تاجرًا موفقًا ماهرًا ، يتجر فى الخز فى قدرة ومهارة . قال قيس بن الربيع : « كان أبو حنيفة يبعث بالبضائع إلى بغداد فيشترى بها الأمتعة ويحملها إلى الكوفة ، ويجمع الأرباح عنده من سنة إلى سنة ، حتى جمع من ذلك ثروة طائلة ، ولم تكن وجهته من ذلك جمع المال والاستمتاع بأطايب الدنيا ، بل كان يرجو من ذلك الستر فى الدنيا ورفع الغمة عن الخلق » .

وكان إلى ذلك رجلا حسن الذوق يعنى بمظهره عناية من يرتاح للشىء الحسن ، يتأنق

فى مظهره ويتعطر حتى كان إذا أقبل عرفه الناس من بعيد برائحة عطره ، وكان قد برأه الله على صورة جميلة وسمت حسن ، إذا استقر فى مجلسه فى المسجد امتلأت منه العيون قبل أن تمتلىء القلوب .

وكان تصرفه فى المال من أجل نواحى خلقه ، لا يحتفظ منه إلا بالقدر الذى يهيىء له حياة كريمة لينة ويغنيه عن الناس ، فإذا بقى شىء أنفقه على المحتاجين وشيوخ العلماء ، لم يسأله أحد إلا أجابه إليها . وكان لا ينفك يعين الناس على دهرهم ، ثم لا يكاد يطيق أن يوجه إليه أحد كلمة شكر ، كان إذا شكره واحد قال له : « أشكر الله تعالى ، فإنما هو رزق ساقه الله إليك ! » .

وقد روى سفيان بن ابراهيم أن أبا حنيفة أقرض ذات مرة رجلاً شيئًا من المال ، وتعسر على الرجل الأداء ، فجعل يتوارى عن أبى حنيفة إذا لقيه فى الطريق حياء منه ، فآلم ذلك أباحنيفة فلاحقه فى الطريق وقال له : « سبحان الله ! بلغ بك الأمر إلى هذا ، حتى إذا رأيتنى تواريت عنى ؟ قد وهبت لك مثل ذلك كله ، وأشهدت على نفسى ، فلا تتوار منى بعد هذا ، واجعلنى فى حل مما دخل فى قلبك منى حيث لقيتنى ! » . وكان إذا أقبل إليه طالب علم فقير أغناه ، وأجرى عليه وعلى عياله حتى يفرغ من التعلم ، فإذا تم له ذلك قال له : « قد وصلت إلى الغنى الأكبر بمعرفة الحلال والحرام ! » .

ولم يشغله ذلك عن الدين ، بل إنه ما كان يفعل ذلك كله إلا ليهيىء لنفسه صفاء ونقاء يصونان دينه عن أن يبتذله فى سبيل الدنيا ، كان ماله خير معين له على الانصراف للدرس والتفقه فى شئون الدين . كان يفرغ من شئون تجارته ويعهد إلى كل من أصحابه بما ينبغى أن يفعله ، ثم ينهض إلى حلقات الدرس فلا يزال يدرس ويقرأ ويسمع ويناقش ، حتى يذهل الناس بما أوتيه من الصبر والجلد على الدرس وما وهبه الله من الذكاء ودقة الفهم ، وكان لايعجبه من الناس دراستهم للدين على ذلك الأسلوب المهلهل المضطرب الذى يختلط فيه كل شىء . كان يرى أن أصول الشريعة لازالت مضطربة فى عقول الناس ، يروون فى الشىء الواحد الأحاديث المتفرقة ، يتعارض بعضها مع بعض فلا يكاد العقل ينتهى إلى رأى واضح فيها يستطيع الأخذ به ، وقد يعرض الموضوع فلا يزال الفقهاء يبحثون عن

موقف الدين منه فلا يكادون يعثرون على ذلك إلا بشق النفس . فجعل همه التنظيم والتبويب ، أخذ يجمع الأحاديث ويبوبها ويربطها بما يتصل بها من آراء الصحابة والتابعين ويرتب ذلك كله ، ومازال ينظم ويبوب حتى انتظمت أحكام الدين فى شتى المسائل فى اتجاه واحد عرف بمذهب أبى حنيفة ، فكان بهذا أول من رتب أحكام الدين وهيأها للتطبيق على شئون الحياة ، وهو فاتح هذا الطريق الذى جعل من الإسلام قانوناً ينظم شئون المسلمين فى الحياة لا مجرد عقيدة نظرية خالصة .

لهذا كثر تلاميذ أبى حنيفة حتى أصبح مقصد كل من طلب التفقه فى الدين أو التبحر فى العلم ، وانتشر تلاميذه فى كل مكان وأخذوا يذيعون فقهه وآراءه ، حتى أصبح الرجل علما على العلم والشريعة فى بلاد المسلمين ، وسارت الركبان تتحدث عن فضله وعلمه وعن شخصه حتى فتن الناس به افتتانا . ورجل كهذا تطمع الدولة فى تأييده ، وتسعى إلى طيه تحت طيلسانها حتى تكسب به من عطف الناس ما هى بحاجة إليه ؛ وكان أبو جعفر المنصور رجلا ذكيا ، فتفطن إلى أنّه لابد له من تأييد أبى حنيفة حتى يتوثق سلطانه بين الناس . وقد ذكرتُ لك أن العباسيين لم يكادوا يستقرون فى كراسى السلطان حتى انقلبوا على الطالبيين وأخذوا يتتبعونهم بالأذى ، ودارت عيونهم تطلب الأنصار فى كل مكان ، وأخذ الناس يَشُكّون فى شرعية خلافتهم ، وتحدث نفر كثير فى أن الأمر ينبغى أن يكون للطالبيين دون العباسيين ، وخشى المنصور أن يستقر ذلك فى أذهان الناس فلا يلبثوا أن يصبحوا هم والأمويون فى أعين الناس سواء ، فجعل يدعو أئمة العلم والفقه والشرع إلى تأييده والوقوف إلى جانبه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بأن يضعهم فى مناصب القضاء والاستشارة ، فلا يلبث جاه المنصب أن يطفىء رواء العلم ويقضى على حرية الفكر ، ولايلبث العالم الجليل أن يصبح من رجال السلطان يميل به إلى حيث يميل .

كان أبو حنيفة الحصيف يعرف ذلك ، كان يكره مناصب الدولة حذرا أن يميل به المنصب عن مواقع الرشاد والتقى ، حدثوا أن ابن هبيرة أمير العراق فى زمن بنى أمية قد كثرت عليه الفتن ، وخاف أن ينصرف الناس عن الدولة ، فرأى أن يتدارك الفتنة قبل أن يشتد ساعدها ، فدعا إلى بابه جماعة من أئمة العلماء فى العراق وعهد إليهم فى المناصب الكبيرة ، وكان يرجو من ذلك أن يقول الناس : « إذا كان أبو حنيفة ، وابن أبى ليلى ، وداود

ابن هند ، من عمال الأموية ، فلابد أن تكون دولتهم على الحق ، ولا حرج علينا فى تأييدهم!» فقبل أكثر العلماء ما عرض عليهم خوفًا من السلطان أو طمعًا فى الجاه ، وأرسل إلى أبى حنيفة ليكون على خاتمه ، فلا ينفذ كتاب من الأمير إلا إذا ختمه الإمام الكبير ، ولا يخرج شىء من بيت المال إلا بإذنه ، فأبى أبو حنيفة ، فحلف ابن هبيرة ليضربنه إن لم يفعل، فجعل أصحابه من الفقهاء يقولون له : « إننا ننشدك الله أن تهلك نفسك ، فإننا إخوانك ، وكلنا كاره لهذا الأمر ، لم نختره ، ولم نجد بدا من ذلك ! » فأبى وقال : « لو أرادنى أن أعد له أبواب المسجد لم أفعل ، فكيف وهو يريد أن يكتب بضرب عنق رجل مسلم ، وأختم أنا على ذلك الكتاب ! فوالله لا أدخل فى هذا أبدًا » ، فحبسه صاحب الشرطة جمعتين لم يعذبه ، ثم ضربه أربعة عشر سوطا .

وحَسِب ابن هبيرة أن أبا حنيفة يكره أن يكون صاحب الخاتم لأنه يخشى أن يكون من حاشية الأمير ، فطلب إليه أن يكون على قضاء الكوفة ، فظل الرجل على إبائه ، وكلما زاد إباءً ، زاد ابن هبيرة فى أذاه دون أن يبلغ منه شيئا .

فلما أقبل المنصور وأحس شكَّ الناس فى أمر دولته ، أدرك أن أول ما ينبغى أن يكون هو أن يكسب إلى نفسه ود العلماء والأئمة حتى يقفوا إلى جانبه ويؤيدوا دعوته ، ويلقوا فى روع الناس أن العباسيين أصحاب حق لا نزاع فيه ، وأنهم أولى بهذا الأمر من العلويين .

وكان رجاء المنصور فى ذلك كبيرا ، لأنه كان رغم بخله كريما فى هذه المناسبات يعرف كيف يسخو ، ولأنه كان بطاشا لا يحفل أىَّ دم أراق ، فلم يكد يفتح بابه للعلماء حتى تهافتوا عليه ، ولم يكد المال يستقر فى الجيوب حتى أخذ جلتهم يرددون ما طلب إليهم العباسيون قوله ، وأصبح الناس فإذا كل قاض وكل إمام يحدثهم بما للعباسيين من حق وما لهم من فضل ، وبما ينبغى على المؤمنين من الطاعة لهذا البيت الكريم .

ووفق المنصور فى ذلك توفيقًا كبيرًا ، وانضوى تحت لوائه نفر كبير من أهل العلم والفقه فى ذلك الأوان . ولكنه لم يكن ليستريح ، فقد بقيت من العلماء طائفة لا تريد أن تبيع الآخرة بالمال ، طائفة أقسمت ألا ينال السلطان إيمانها بسوء ، وألا يكون عليها سلطان إلا الحق الذى يرضاه الله . بقيت هناك طائفة صغيرة جدًا ظلت ملتفة حول أبى حنيفة أعلم

أهل زمانه وأفقه من ضمته دولة الإسلام ، وكاد يكون أوسع الناس سلطانًا على القلوب . وأقام أصحاب الإيمان الصادق فى كافة أنحاء الدولة ينتظرون كلمة منه فى الدولة العباسية حتى يحددوا موقفهم منها .

استقدم المنصور أبا حنيفة وهو لا يشك فى أن الرجل مرحب بهذا النداء ، فلما أقبل عليه طلب إليه أن يلى قضاء البصرة ، وكان قضاء البصرة منصبًا يحلم به العلماء ويتهافت عليه الناس ، وكان المنصور لا يشك فى أن أبا حنيفة سيهلل لهذا العطف وأنه سينقلب من يومه فيصبح من أخص الدعاة للعباسيين .

ولكن الرجل رفض ! رفض أن يكون قاضيًا فى دولة من سَلَبَ أبناء الرسول حقهم ، فرُوِّع المنصور ، وخاف أن يتسامع الناس بذلك ، فأقسم على أبى حنيفة أن يقبل القضاء ، فحلف أبو حنيفة ألا يقبل ! فاستطار الغضب الربيعَ وزيرَ المنصور ، وعجب لإنسان تبلغ به الجرأة أن يرد قسم أمير المؤمنين ، فقال للإمام : « ألا ترى أمير المؤمنين قد حلف ؟» .

فأجاب أبو حنيفة : « إن أمير المؤمنين أقدرُ على كفارة يمينه منى على كفارة يمينى .. » .

فقال المنصور : « أترغب عما نحن فيه ؟ » .

فأجاب الإمام : « أصلح الله أمير المؤمنين . يا أمير المؤمنين .. اتق الله ، ولا تشرك فى إمامتك من لا يخاف الله ! والله ما أنا مأمون الرضا ، فكيف أكون مأمون الغضب ؟ فلأصلح لذلك ! » فقال المنصور : « كذبتَ ، أنت تصلح لذلك ! » فقال الإمام : « إن كنت صادقًا فقد أخبرت أمير المؤمنين أنى لا أصلح ، وإن كنت كاذبًا فكيف تولى قاضيًا كذابًا ؟ » .

هناك أعلنت الخصومة بين الخليفة والإمام ، ووقف هذا الرجل يناضل الخلافة ودولتها وحيدًا لا يكاد يحميه من عسفها أحد .

وجعل يحتمل العذاب راضيًا صابرًا ، يجلدونه بالسياط فيأبى ، ويحرمونه الطعام فيزداد إباء ، ويلقون به فى زمرة المجرمين والقتلة فى غياهب السجون فلا يتحول عن الحق ولا تلين قناته !

يئس المنصور من هذا الرجل ، وتأكد أنه لن يوفق معه إلى شيء عن سبيل المال أو السوط فكف عنه يده ، وأدركه شيء من الندم على ما فعل ، فبعث إليه بشيء من المال يعوض عليه بعض ما أصابه من الخسارة فى متجره والأذى فى بدنه .

وبلغ أبا حنيفة أن الخليفة أوصى له بمال فرفض أن يمس المال ، فلما كان اليوم الذى توقع أن يؤتى بالمال فيه ، صلى الصبح ثم تغشى بثوبه فلم يتكلم حتى إذا أقبل الرسول بالمال قال : « ضعوا المال فى هذا الجراب فى زاوية البيت » .

ومات أبو حنيفة من أثر السياط والسجن والعذاب ، ورُد المال إلى بيت المال . فلم يملك أمير المؤمنين دمعه أن يسيل ! .

أولئك كانوا هم العلماء حقًا .. المسلمين حقًا ! .

صقر قريش

عبد الرحمن بن معاوية الداخل

الله يعلم ما تركت قتالهم   حتى علوا فرسى بأشقر مزبدِ
وشممت ريح الموت من تلقائهم   فى مأزق ، والخيل لم تتبددِ
وعلمت أنى إن أقاتل واحدًا   أُقتَلْ ، ولا يضرُرْ عدوى مشهدى
فصددت عنهم ، والأحبة فيهمُ   طمعًا لهم بعقاب يومٍ مرصدِ

كان الفتى يردد هذه الأبيات وإنه ليبكى ، كان مطرقًا يعبث بيده فى الماء الذى كان يضطرب تحت قدميه ، وكان يرفع رأسه ـ بين حين وحين ـ ليلقى نظرة إلى سفين بعيد يكاد الموج أن يخفيه ، و كان يشعر أن جسده يميل إلى الراحة ، وأن جفنه يطلب النوم ، فهذه ليال ثلاث لم يسكن له فيها جفن ، ولقد عبرت به من قبلها أشهر وسنون كان لا ينام فيها إلا غرارا ، ولم يكن ليغمض له خلالها جفن حتى يأتمر به عدو أو يهم به خصم . كان يعلم أنه أرسل آخر سهم فى كنانته حينما أرسل مولاه بدرا يتحسس له الأحوال فى الأندلس ، وكان لا يشك أنه هالك لا محالة إذا لم تدركه رحمة الله وتعطف عليه بعض القلوب فى هذه الجزيرة القاصية .

كان المكان قواء لا يطرقه إنسان ، ولكنه كان يفيض بالحياة ، فهذه أمواج البحر تهدر ، وهذه طيور الماء تُحَوِّم ، وهذا فؤاد الفتى أشد من البحر اضطرابا ، وهذه نفسه مرهفة الحس ترقب فى خوف عبث الأمواج بسفينته التى وضع فيها مولاه ومعه آماله بل أمله الوحيد . ثم أدركه التعب وأحس النوم يطغى على نفسه فلم يجد له دافعًا ، فنهض عن الصخرة التى ارتاح إليها ، وطوى قدمه عائدًا إلى البر ، فإذا أدركه فقد اطمأن إلى كهف بين الصخور ألقى جسده فيه إلقاء ، ثم استغرق فى نوم عميق .

كانت له سمة الملوك : طويل فى غير سرف ، عريض فى غير إفراط ، قوىٌّ ، تتحدث قسماته عن البأس الشديد والعزم الحديد . وكانت عليه ثياب غاليات أدركها البلى ، وفى قدميه نعلان أبلاهما طول السرى ، ولم يكن معه إلا كتابان أغلب الظن أن أحدهما القرآن ، وكان يبدو أنه مضطرب فى نومه لا يكاد يغرق فى النوم حتى يفيق : كانت الأفكار تذود النوم عن عينيه ، فها هو ذا يفيق وينهض ، ثم يعتمد رأسه بيديه وتأخذ الذكريات تخطر فى رأسه تباعا .

ذكر الفتى أيامه الأولى وهو فى غمرة الصبا ، يتنقل بين أدب المربى وملق الندماء ، ذكر قصر جده هشام فى رصافة دمشق ، وذكر حبَّ هشام إياه وإيثاره له وتفاؤله بمقدمه ، وذكر إعجاب العرافين بسمته وقراءتهم المجد مسطورًا على جبينه . ذكر هذا كله ، وطافت بنفسه حسرة على الأمل الضائع والحظ العاثر ، ثم انتقل بفكره إلى يوم أسود : ذكر كيف خرج إلى الصيد ثم عاد ، فإذا رايات العباسيين تخفق على داره ، وإذا الجند يضطربون فى بيته يجدُّون فى البحث عنه ، وسرى فى نفسه نوع من الرهبة لهذه الذكرى المروعة .

إنه ليذكر الآن كيف انطلق يعدو إلى فرسه وهو يعانى ألماً قاسيًا فى عينيه من رمد كان ملمًا بهما ، وكيف امتطى صهوته وانطلق كالسهم المارق يقطع الفيافى والقفار ، وكيف دخل على أختيه فى الدار فروَّعهما إذ أنبأهما بطلب العباسيين له ، وكيف حزم متاعه على عجل ونادى أخاه ، وهرولا عجلين بعد أن ودعا أختيهما ، حتى إذا كانا بالباب فقد طالعتهما الرايات السود مرة أخرى كأنها الأكفان ترفرف فى الهواء ، فأدركهما الرعب وانقلبا على عقبيهما ، فلم يجدا إلا النهر أمامهما ، فألقيا نفسيهما فى الماء وأخذا يسبحان . فأما فتانا فقد أعانه ذراعه وأدرك الشاطىء الآخر ونجا ، وأما أخوه فقد أدركه الإعياء فانثنى إلى الشاطىء حيث تعاورته السيوف .. هنا أرسل الفتى دمعة حرَّى على الأخ الشهيد .

ثم حملته الذكريات إلى الشام حيث لقى خادميه بدرًا وسالماً ، فأعطياه من المال قدرًا ومن الحلى قدرًا آخر بعثت به أختاه ، وصحباه فى رحلته خلال مصر والمغرب إلى أقصاه ، وكانت الأرصاد مبثوثة تطلب الأمويين وتتعقبهم ، وكان هؤلاء قد انتثروا فى القفر والجبل طلبًا للنجاة ، وكان الناس يتربصون بهم الدوائر ، فأسلموا للعباسيين من وجدوه منهم .

ولم يطل بالشام مقامه ، فقد كانت يد عبد الله بن عليّ شديدة لا تكاد تعفى ، فانطلق إلى مصر حيثُ وجد الرعب شاملاً ، فهذا مصرع مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية يعلن له أن المقام بمصر محال ، وأن السلامة فى الفرار منها إلى المغرب للاعتصام فى جباله ووهاده .

ولو أن إنسانا آخر كان مكانه لما كان له بعد السلامة مطلب ، ولطلب بطن الأرض وعاش فى غمار الناس ، ولكن الفتى لم يكن لينفض من الآمال يده ، كانت لا تصرفه عن طلاب العلا غاية ، ولا يشغله عن الحلم بالتاج شاغل . كان طريدًا مفلسًا يطلبه الجلادون وينعق على رأسه البوم ، وكان مع هذا يلح على الأيام إلحاحًا ، ويصر على ما يريد إصرارًا حتى حنت له الأيام هامتها ودان له بنو الزمان ..

وخرج من مصر هاربًا ، فأفضى بنفسه إلى نجاد إفريقية وصحارى المغرب ، وتقاذفته القبائل فمضى يتنقل من وهاد برقة إلى قمم الأطلس السامقة فوق ماء بحر الظلمات ، واشتدت به الأيام واستبدت به المخاوف ، ولكنه كان على أى حال فى مأمن من سيف الجلاد ، لأن سلطان العباسيين لم يكن قد شمل بعدُ هذه النواحى ، إذ كان يقوم بالأمر فيها مغامر هو عبد الرحمن بن حبيب الفهرى ، تقص الأيام من أمره عجبا ، فتزعم أنه طلب الإمارة فى برقة فانقلب عليه أهلها ، ففر إلى الأندلس ، وحاول أن يرفع لنفسه شأناً فى سهولها فطارده زعماء عربها وقذفوا به إلى البحر ، فانطلق عائدًا إلى تونس حيث جَمَع الأتباع وأعد العدة وطلب الإمارة طلبَ من لا ينثنى ، فاستجابت له الأيام وطاب له الملك وأصبح أميرًا على إفريقية ، فلما استقر له الأمر لم يكن شىء أبعث لمخاوفه من المغامرين والهاربين من بلاد العرب ، فحرم عليهم أن ينزلوا فى ناحية من نواحيها ويطمئنوا فيها .

وتريد الأيام للفتى أن يتنبه ابن حبيب لمقدمه قبل أن يراه ، فتبعث لابن حبيب عرافا يخوّفه من شاب اسمه عبد الرحمن ، ينحدر عن أصلاب ملوك ويرسل سوالفه مستديرة على جانبى وجهه ؛ وكانت تلك صفات فتانا عبد الرحمن بن معاوية . وقد يكون ذلك من أساطير الرواة ، ولكنه يدلنا على أن مقامَ الفتى فى المغرب لم يكن بالهادىء ولا بالمأمون . والثابت على أى حال أن عبد الله بن حبيب لم يكد يراه حتى بيت له الشر ، وأخذ يعد العدة للخلاص منه .

أسرع الفتى فنجا بنفسه ، وقضى بضع سنين فى رعاية رستم أحد أمراء تاهرت ، ثم تخوَّف منه رستم هذا وأحب الخلاص منه ، ففر إلى مكناسة حيث أقام زمنا طويلا ، ثم ضاق به أهلها ففر إلى قبيلة نَفزة على مقربة من طنجة ، ولم يزل هناك حتى انقلب عليه النفزيون ، فانطلق عنهم حتى أدرك البحر وأوفى على العدوة القصوى . وكان يعرف أن الرجوع معناه الموت ، ففى كل خطوة يترصده عدو ، وفى كل مكان يترقبه جلاد ، ولم يكن أمامه إلا سبيل واحد للحياة : هى أن يعبر مضيق جبل طارق لينزل الأندلس يجرب حظه فيها ! ولكنه تردد إذ اتصل به أن أهلها متنازعون على الإمارة ، مختصمون فى شأنها لاينقصهم منافس جديد ، بل إن صاحب الأمر فيها أنصارى من المدينة لا ينوى بالأمويين خيرًا ، ويتحرق شوقاً ليبلغ منهم ثأر « الحرة » ومن ماتوا بها من الأنصار على أيدى بنى مروان ، فأحب أن يستطلع الأخبار ، فأرسل خادمه بدراً يحمل الهدايا إلى الأمراء المتخاصمين ويعرض عليهم إمارته ، وحمَّله وصاياه وآماله وبقى على ساحل البحر يرقب سفينة الآمال حيث لقيناه فى أول هذا الحديث .

نزل بدر بالأندلس فوجدها شيعا وأحزابا ، وجد فيها صراعا بين القحطانيين والعدنانيين ، بين من أقبل إليها من عرب اليمن وأهل المدينة من الأنصار ، ومن هاجر إليها من عرب الشام ؛ وكان الحيان على خصومة لا تعرف صلحا ولا سلاما ، إنما هى ثاراتٌ يطلبها بعضهم عند بعض من سهول خراسان إلى جبال البرانس . وكان عرب الأندلس من أعنف العرب خصومة وأحرصهم على الثأر ، حتى كادت هذه الجزيرة المترامية أن تضيق بما حملت صدورهم من أحقاد ، وتوالت الوقائع بينهم وسالت الدماء وتهددهم خطر الغزو من الشمال .

وجد بدر طائفة القيسية وعلى رأسها عبيد الله بن خالد تناجز عرب قِنَّسرين وعلى رأسهم يوسف بن بخت ، ووجد هؤلاء جميعًا يعادون يوسف الفهرى أمير اليمنيين وأحد صاحبى الأندلس ، فحدثته نفسه أن يلقى بسهامه فى هذه المعركة الدائرة . وطالِب المجد مغامر يحمل روحه على كفه ، تستثير همته المخاطر ولا تكاد تروعه العواصف .

كان اليمنيون يضيقون بأعدائهم ويشعرون بالضعف ، ويخشون عادية الشآميين ، فلم

يكد بدر يحدثهم عن عبد الرحمن بن معاوية وحفيد هشام بن عبد الملك حتى سارعوا ورحبوا به ترحيباً بالغاً . ثم مضى ومعه بعض رجال اليمنية إلى الصُّميل بن حاتم أمير القيسيين ، وعرض عليه الدخول معهم فى ذلك الأمر ، فتردد تردداً شديداً : أجابهم أولاً إلى ما طلبوا ، ولكنهم لم يكادوا يتركون معسكره ويمضون نحو أهلهم حتى تردد الخوف فى قلبه، فلحق بهم على ظهر جواده ، ونصحهم بألا يطيعوا ذلك المغامر الذى يريد أن يصبح أميراً عليهم ، ثم أنذرهم وعبد الرحمن بالحرب إذا هم ساروا فى دعوتهم ، ولكن أميرى اليمنية ضاقا بهذا الرجل المتردد الحائر ، وصمما على إنفاذ رأيهما للخلاص بعرب الأندلس من الفوضى التى كانوا يضطربون فيها ، وكانت بهم خشية من مهاجرى المدينة المنورة الذين كانوا يتحرقون للانتقام من الأمويين .

أقبل عبد الرحمن خائفا مضطربا ، فلقى أنصاره ومعهم بعض الجند ، فبعثوا فى طلب الأنصار ، وكانت الخلافات قد أجهدت المسلمين فى الأندلس وفرقتهم حتى لم يعد أحد منهم يثق فى أحد ، وكان اليأس قد أدرك القلوب من عودة الأمان واستقرار الأحوال حتى ما عاد أحد يلبى نداءً أو يجيب زعيما . وكان عبد الرحمن غريبا عن الطوائف كلها ، فكان عليه أن يجمعها ويعيد فتح البلاد من جديد ، وكان فتى يافعا ومن حوله شيوخ أنضجتهم المحن وشيبتهم المعارك ؛ وكان لكل منهم شيعته ولكل منهم هدفه الذى يتيمّمه ، فكان على عبد الرحمن أن يكون على الحذر من ذلك كله وإلاّ ضاع أمره سدى ، ولكن حزمَه ويقظتَه أعاناه على السير بسفينته وسط العواصف ، فمضى يجمع الأنصار من اليمنية والأموية ، وكانوا موتورين من القيسية والمضرية لفرط ما كان قد نزل بهم من الأذى على يد يوسف الفهرى والصميل بن حاتم أميرَىْ الأندلس يومئذ .

سار عبد الرحمن من أرش إلى شُذُونة إلى أشبيلية يتيمَّم منازل اليمنية ، وهو لا يكاد يقارب منزلا إلا خرج أهله للقائه وانضموا له ، وكسب الفتى قلوب من معه بما أبدى من الذكاء وحسن التصرف ، وسرت الحماسة له بين الجند ، فعقدوا له لواءً متواضعًا هو قناة وعمامة ! ولكن الله باركه فسار النصر فى ظلاله : أدرك به عبد الرحمن الأول الـمُلْكَ ، وتفاءل به خلفاؤه هشام والـحَكَم ومن تلاه إلى زمان عبد الرحمن الناصر .

ومضى يوسف الفهرى والصميل بن حاتم حتى وقفا بمن معهما عند الـمُدَوّر شمالى قرطبة ، وتقدم عبد الرحمن من إشبيلية حتى عسكر عند طَشّانة على العدوة الأخرى من النهر قبالة الـمُدَوَّر ، وأراد كل من العسكرين أن يسبق الآخر إلى دخول قرطبة ؛ فمضيا يستبقان حتى حانت فرصة اللقاء عند قرية يقال لها المصَارَة ، كُتب النصر فيها لعبد الرحمن على رغم ما كان قد بدا على أنصاره اليمنية من خوف ، كُتب له النصر بفضل ما أوتيه من الجرأة وبعد الهمة ، وحسن السياسة .

واستقام الأمر لعبد الرحمن بعد ذلك ، ولكن على أية حال ؟ ظل كل شيء مضطربا مزعزعا لتفرق نفوس عرب الأندلس وكراهتهم للسلطان الموحد القاهر ، فظل عبد الرحمن يحارب الثائرين منهم والخارجين عليه والنازعين إلى الفوضى ثلاثا وثلاثين سنة لم يكد يطمئن له خلالها جفن ، وكانت الحوادث قد غيرت نفسه حتى صار لا يأمن إلى أحد ولايسكن إلى نصير ، واشتدت ثورات أعدائه حتى كتبوا يستنصرون بالمنصور العباسى وبشرلمان ، ولكنه خرج من هذه المعامع الطويلة موفقاً ، بعد أن كابد من الخطوب ما لم يكابد مثله أمير ، ولكنه أقام للمسلمين ملكا وللإسلام عزا عاصرا الدهر ، وعبرا القرون حتى أصبحوا حديثا يتلى من جيل لجيل .

رجــل ودولــة

أحمد بن حنبل

دعِ الناس فى مراقدهم فليست بهم حاجة إلى صلاة ! وخفف الصوت إذا أذَّنت فى الفجرِ مخافة أن يؤرقهم صوتك فيحول بينهم وبين ما هم فيه من نوم عميق أو لهو شديد ! دع الناس فى مراقدهم فقد طعموا واطمأنوا على أرزاقهم ، فما حاجتهم إلى التقوى والصلاة؟ دعهم وامض لشأنك : صلِّ إن شئت ، وتعبد ما أحببت من العبادة ، فهذا عصر قد نزلت الشهوات فيه من نفوس الناس منزلاً لا يدع محلاً للأمل فى صلاحهم أو ردهم عما هم فيه من ترف ورفاهية ، وقد نام الإحساس فى نفوس أكثرهم أو قُل إنه قد مات، حتى لقد تولى أمرهم خليفة فيه ميل للتقى والصلاح وهو المهتدى بالله (٢٥٥ ـ ٢٥٦ هـ) ، فأخذ يميل بالناس نحو الزهد فى الدنيا والتقلل من ترفها ، وتزهَّد هو فى عيشه امتثالاً للقدوة الإسلامية العليا ، فثقلت وطأته على العامة والخاصة بحمله إياهم على الطريقة الواضحة ، فاستطالوا خلافته وسئموا أيامه ، وأعملوا الحيلة عليه حتى قتلوه ! كما يقول المسعودى .

فإذا كانت هذه حالهم ، فمالك تحدِّثهم عن الزهد فى المتاع والانصراف إلى الله وسبيله؟ وهؤلاء هم علماؤهم وأتقياؤهم يعيشون فى وحدة شاملة وحرمان مجهد ، لشدة انصراف الناس عنهم وبخلهم عليهم بمجرد الخبز . وهذا هو عبد الوهاب البغدادى المالكى الفقيه الأديب ، صاحب المؤلفات الجليلة فى الفقه ، يضيق به العيش فى بغداد وتتجهم له الحياة فى ربوعها فيفارقها على رغمه طلبا للرزق ، ويقول مخاطبا من أقبل لوداعه من أهلها : « لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة ما عدلت عن بلدكم ! » . وهذا أبو حيان التوحيدى العالم الأديب البليغ المتفلسف ، يعيش عيشَ المجهد المحروم من نسخ الكتب ، ويقول يشكو هؤلاء الناس : « ولقد اضطررت بينهم بعد العِشرة والمعرفة فى أوقات

كثيرة إلى أكل الخضر فى الصحراء وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمروءة ، وإلى تعاطى الرياء بالسمعة والنفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، ويطرح فى قلب صاحبه الألم .. » (١). وهذا أبو سليمان المنطقى أعقلُ عقلاء بغداد وأوسعهم نظراً وأعمقهم فكرًا ، وقد اطَّلع على الفلسفة اليونانية وعرف مراميها وأغراضها مع استقلال فى الفكر ، وأصبح شخصية ممتازة فى الـحُكم ، يوجز أبو حيان التوحيدى وصف شقائه فى بغداد بقوله : « إن حاجته ماسة إلى رغيف ، وحولُه وقوته قد عجزا عن أجرة مسكنه وعن وجبة غدائه وعشائه » ؛ وغير هؤلاء كثيرون كانوا يتقلبون فى مهاد الخصاصة والحرمان ، والناس من حولهم فى ترف لا يوصف ونعمة لا يطوى بساطها !

مالنا إذن ولهؤلاء الناس ! دعهم فى ترفهم .. ثم هلم بنا إلى هذا المسجد الساكن الذى يحاذر الناس أن يدخلوه خوفا من أن تأخذهم أعين الشرط فيتهموا بالميل إلى أحمد بن حنبل، وحذار أن تحدَّث الناس أننا اختلفنا إلى هذا الرجل فاستمعنا إليه وأخذنا عنه وواسيناه فى وحدته ، فإنما هو منبوذ قد اشتدت الخصومة بينه وبين الخليفة وأهل الدنيا والسلطان ، وإنما هو متروك فى وحدته قد خاصمه أكثر الناس إذ خاصمه السلطان ! وقد بدأ القوم يهمس بعضهم لبعض أن الخليفة قد توعده بشر وأنه يتربص به الأيام . وكيف لا يغضب الخليفة المأمونُ وهذا عبدٌ من عبيده قد حدثته نفسه بأن يرفع صوته ويعارضه ويقول ما لا يريد الخليفة أن يقال ؟ وكيف لا تأخذه سياط الشرطة وقد نسى أن المأمون قد نصره الله على الأمين ، وأن سورة الـمُلك قد ركبت رأسه بعد إذ أتاه النصر العزيز ؟ وكيف لا يحاذر الناس لقاءه وهذا إسحاق بن ابراهيم شرطة بغداد يعلن للناس أن أمير المؤمنين قد كتب إليه من الرقة يأمره بامتحان الناس ؟ .

ها هو ذا قام يصلى ، فلنأخذ مكاننا خلفه ولنأتـمَّ به . إنه يطيل القيام ويطيل السجود ، وإنـه ليطيل الدعــاء ، وإن دموعه لتنهمر على وجهه خشية من الله لا خشية من الجنـد والأعوان . ثم هاهو ذا يفرغ من صلاته فينصرف إلى مسبحته فلا يزال يسَبِّحُ بها حتى يكاد يدركنا الملل ، ثم ها هو ذا يحس وجودنا فيستغفر الله أن لم يشعر بنا إلا الساعة ! وها هو ذا

---

(١) أبو حيان التوحيدى : الإمتاع والمؤانسة ، جـ ١ ، ص ٣١ .

يبتسم لنا ويهش لمقبلنا ، وينظر إلينا بعين العطف كأنه يود لو يُجنّبنا عذابا لا قبل لنا به ، ولكننا نُصِرُّ على أن نجلس إليه ونستمع حديثه ، فإذا اطمأن إلى أننا لا نخشى شرّا فقد اعتدل فى مجلسه ، وأخذ من ثيابه قطعة خبز يابسة فوضعها فى إناء فيه ماء ثم انتظر قليلا حتى لانت ، وها هو ذا يغمسها فى الملح ثم يأكلها وهو يحمد الله ..

لقد أقبل الظهر ولازال هذا الرجل يحدثنا حديث العارف الواثق بشئون الدين والدنيا ، وها هو ذا لا يقول شيئاً إلا أسنده وأكده ، إنه يحفظ من الحديث آلافاً لا تحصى ، وينظر فى الدين بقلب قد ملأه النور ، وفكر أسبغ عليه الله من فضله قوة ومضاء ، وإننا لنطرح عليه المسائل من الشرق والغرب فلا يفتأ يجيب حتى يفتح لنا من رحاب التفكير مذاهب ماكانت تخطر لنا على بال ، ثم ها هو ذا مؤذنه الفقير المعدم يؤذن للظهر حتى يجف حلقه فلا يقبل أحد ، ثم هذا رجل فقير فى أطمار ممزقة يدخل المسجد رافع الرأس مشرق المحيا واضح الجبين كأنما قد بدّله الله من ثياب النسج ثيابا من الطهر والهيبة والجلال ، وهذا هو ذا يقبل على أبى عبد الله فيسلم ، ثم يأخذ الاثنان فى حديث طلى لطيف ، ثم لا نلبث أن نستبين أنهما صديقان وفيان ، كأنما قد قنع الإمام الجليل بهذا الفقير عن أهل الدنيا ، وكان فى استطاعته أن يأخذ مكانه فى قصر الخليفة يحيط به الخدم والحشم ، ولكنه يأبى هذا ويدعه لكل من هانت عليه نفسه فباعها وشرى بها متاعا زائلا .

ثم لنبرح المسجد مسرعين ، فإن الرجل ليصلى كل يوم من الظهر إلى المساء بضع مئات من الركعات ، وما أُرانا إلا سنثقل عليه إذا لبثنا فى مكاننا هذا فى وقت صلاته ، فلنسلم عليه ولندعه ليخلوا إلى ربه يومه هذا . ولكن ما هذه الأصوات التى تترى على آذاننا من خارج المسجد كأنما قد حدث أمر جليل فأقبل الناس وتزاحموا ؟ ثم ما بال الأصوات تقترب كأن أصحابها مقبلون علينا ؟ نعم ! هؤلاء هم يقفون بباب المسجد ، ثم يخطو من بينهم نفر أكثرهم من رجال الشرطة . إنهم ليتقدمون نحونا ، فلنحذر أن يبصروا بنا ، ولنختف فى هذا المكان خلف المنبر ! ها هم أولاء يقبلون على الشيخ فيروّعون عليه الصلاة، ويتحدث رئيسهم فيعلن إلى أبى عبد الله أنه مطلوب إلى دار رئيس الشرطة فى مهمة من قبل أمير المؤمنين . إن الرجل ليشتد به الألم من هؤلاء الذين أحبوا أن يروعوه فى

ساعة أراد أن يخلوا فيها إلى بارئه ، ولكنه ينهض وإياهم متثاقلاً ، ويمضى معهم ، ويخلو المسجد وتسوده وحشة مخيفة ، فلنخرج منه سراعاً .

إن الخليفة المأمون يمتحن الناس فى إيمانهم ، إنه لخليفة مستنير وأمير جليل ، ولكنه سلطان لا تسلم نفسه من شدة السلاطين ، كان فارسى المنبت فاكتسب من أصله الفارسى حبًا للعلم وميلاً إلى الانصراف إليه ، وقد أحاط به المؤدبون ـ وفيهم كثير من الفرس ـ فجعلوا يبثونه ما يمازج دمهم من حب أهل البيت ، حتى مال إليهم واقتنع أنهم أصحاب الحق الأول فى هذا العز الذى يستأثر به العباسيون . وهاله أن يجد الكثرة الغالبة من رعيته لا تنصرهم ولا تنهض لرد حقهم إليهم ، فأحب أن ينصفهم بعض الإنصاف ، فتشيَّع لهم زمانا ، ولكنه عاد فترك الأمر إذ وجد فيه خطراً شديداً على ملكه وسلطانه ، ثم انصرف إلى الجدل الدينى ، فراقته آراء المعتزلة ، وأعجب بها إعجاباً شديداً . فهؤلاء قوم لايقولون بشىء إلا إذا رضيت عنه عقولهم ، ولا يسلمون برأى مجبرين بل طائعين مختارين ، وقد تناولوا بفكرهم كل شىء فانتهوا إلى آراء جديدة لم يسبقهم أحد إليها ، بل لم يقرَّهم كثير على المضى فيها ، وكانوا قوماً أحرار الفكر حقاً ، أرادوا أن يتعمقوا دينهم وألا يقفوا أمام سر من أسراره جامدين دون فهم ، فمضوا يتساءلون عن الله : ماهيته وطبيعته وأصله وصفاته ، وعن الرسول ونفسه وأفكاره وغاياته ، وعن القرآن ومعانيه ومراميه وأصوله ، ومادق عن الفكر من لفظه وتركيبه .

وهنا انتهى بهم إدمان التفكير إلى رأى جديد طريف فى أصل القرآن ، قالوا : إن القرآن قد نزل حسب الحوادث التى حدثت أيام الرسول ، أى أنه حادث مخلوق . وكان أكثر الأئمة لا يرى هذا الرأى ، أو قل إنهم لم يفكروا فى هذا الموضوع ، وإنما كانوا يعتقدون بداهة أن القرآن لم ينزل بحسب الحوادث أو المشاكل التى عرضت للرسول وإنما هو أقدم من ذلك ، أى وُجد من قديم الأزل فلم يتنزل لحادثة ولم تخلق آية منه لمشكلة طارئة ؛ هكذا كان إيمان الكثرة الغالبة من فقهاء المسلمين وأئمة مفكريهم فى ذلك الزمان . استمع المأمون إلى رأى المعتزلة فوجد أنه أقرب إلى العقل وأصحَّ فى حساب المنطق ، فتشيع له . وهنا قامت الخصومة بينه وبين فقهائه وعلمائه ، فلم يطق أكثرهم خصومته بل سلموا برأيه طائعين أو خائفين ، وارتاح المأمون لطاعة العلماء ، وكتب إلى صاحب شرطته ابراهيم بن

إسحاق يأمره بامتحان من بقى على الإباء منهم ، فأتى بهم ، فسلموا وأطاعوا ، لم يشذ منهم إلا أربعة كان فكرهم أعز عليهم من راحة أبدانهم ، فرفضوا أن يجيبوا عمال المأمون إلى ما طلبوا ، فإذا يئس صاحب الشرطة منهم فقد كتب إلى الخليفة فى أمرهم ، وهم : أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، وعبيد الله بن عمر القواريرى ، والحسن بن حماد . فلما بلغ الخليفة أمرهم ملكه الغضب وأمر أن يؤتى بهم إليه فلم يكد اثنان منهما يسمعان بذلك حتى تخونهما العزم ونكصا على عقبيهما وأطاعا ، وأصر اثنان على ما ذهبا إليه ، فحملا إلى المأمون مقيدين مصفدين ، هما : أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح .

تُرى كيف يفعل المأمون بهذا الرجل الضعيف أحمد بن حنبل ؟ أتراه يعفو عنه ويخلى سبيله احتراما لعلمه وضَنًّا بدينه وتقاه أن ينالهما أذى ؟ أم تراه يأخذه بعنف وينزل به من العقاب الأمر الشديد ؟ كان الخليفة يعرف أن الإمام لم يكن يرضى عن خلافة بنى العباس إذ كان يرى أنها قائمة على الاغتصاب وإذلال العرب ، وقد جعلوا دأبهم منذ صارت الأمور إليهم أن يقضوا على كل معارضة بحد السيف ، وأن يغرقوا كل مخالف فى دمه ، وها هم أولاء يسرفون فى المعصية ويلجون فى الترف حتى ليكادون أن يبتعدوا بالإسلام الصحيح عن طبعه البسيط الصافى ، وها هى ذى قصورهم تضطرب بالجوارى وتعج بالخدم والندمان والمغنين وأصحاب اللهو من كل صنف ، وها هم المتشددون من أهل الدين يلقون على أيديهم عذابا هو شر عذاب . فهذا أبو حنيفة يهان ، وذلك مالك يحتمى بالحجاز ، وهذا الشافعى يقاطعونه ويدابرونه ، فكيف يرضى عنهم إمام عفيف كابن حنبل؟ إنه ليقاطعهم ويجعل بينه وبينهم سدا ، وهل ينسى المأمون أن هذا الرجل قد أبى أن يلبى لأبيه قضاء اليمن ؟ فلما كلمه الإمام الشافعى فى هذا نظر إليه وقال : « تأمرنى أن أدخل لهم القضاء » كأن الدخول لهم فى القضاء معصية لا يقترفها إمام طاهر كابن حنبل ! فلنر الآن كيف يكون الأمر بين السلطان والإمام ، بين الدنيا والدين ؟ .

يحسب المأمون أن ليس أيسر عليه من العسف بعالم لا حيلة له أمام الشرط والسياط ، ولكن الأمر ليس بهذا اليسر ، فإنه يستطيع أن يأمر صاحب شرطته أن يضرب الفقيه العظيم الفاضل بالسياط حتى تكل يد الضارب ، ولكنه لا يستطيع أن يرغم الفقيه على أن

يغير رأيه أو يقول ما لا يعتقد ، لأن رجلا واحدا ذا إيمان يستطيع بإيمانه أن يزيل عشرات المآمين وعشرات السلاطين .

وكأنما تهيَّب المأمون الإقدام على عمل لا يجرؤ عليه إلا أمير غرَّته الدنيا وعبث برأسه الشيطان ، وقد أجابه معظم القضاة وذوى الشأن إلى ما طلب ، وكان حريا به أن يترك ابن حنبل وشأنه ، فهذا واحد من عشرات . ولكن عزة سلطانه أبت أن تعلو عليها إرادة رجل فاضل واحد ، ومن ثم أرسل يهدد الفقيه الجليل ، عساه يبلغ منه بالتهديد ما يكفيه مئونة الشدة والأذى ، ولكن ابن حنبل تلقى وعد السلطان هادئا ساكنا ورد عليه ردا لا جفوة فيه ولا استثارة ، فما كان من المأمون إلا أن أمر بهذا الرجل ـ والنفر الذين أبوا الإقرار معه ـ أن يضربوا بالسياط كما يضرب المجرمون والعابثون بحرمات الناس .

والآن فلنمض إلى حيث يمتحن هذا الرجل الجليل ، لنشهد منظرا يهز فؤادنا هزاً ؛ لنستمع إلى حديث ميمون بن الأصبغ ، فقد رأى امتحان ابن حنبل بعينيه . قال : « كنت ببغداد فسمعت ضجة ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : أحمد بن حنبل يُـمتحن ، فأتيت منزلى فأخذت مالا له خطر ، فذهبت به إلى من يدخلنى المجلس ، فأدخلونى فإذا بالسيوف قد جُردت وبالرماح قد ركزت ، وبالتراس قد نصبت ، وبالسياط قد طرحت ، فألبسونى قباء أسود ومنطقة وسيفاً ، وأوقفونى حيث أسمع الكلام ، فأتى أمير المؤمنين فجلس على كرسى، وأتى بأحمد بن حنبل فقال له : وقرابتى من رسول الله ﷺ لأضربنك بالسياط أو تقول كما أقول ! ثم التفت إلى جلاد فقال : خذه إليك ـ فأخذه ، فلما ضرب سوطاً قال : «بسم الله » ، فلما ضرب الثانى قال : « لا حول ولا قوة إلا بالله » ، فلما ضرب الثالث قال : « القرآن كلام الله غير مخلوق » ، فلما ضرب الرابع قال : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا»، فضربه تسعة وعشرين سوطاً .. » .

هكذا ظل الرجل يعذب كل يوم ، لا يزال الجلاد يضربه حتى يغمى عليه ، والخليفة مصر على أن يرغمه على التسليم بما يريد ، وهو ملازم للحق لا يبارحه ، ولكن الله يهبط بالرحمة على عبده ، فيقبض إليه المأمون قبل أن يستخرج من فم هذا الرجل كلمة واحدة ، وأراد ربك لهذا العاهل القوى الذى دوخ الملوك والذى نشر سلطانه على الدنيا أن يعجز أمام رجل واحد ثابت على مبدئه .

وهذا أحمد بن حسان يحدّث فيقول : « لما حُملت مع أحمد إلى المأمون تلقانا خادم وهو يبكي ، ومسح دموعه وهو يقول : عزٍّ عليّ يا أبا عبد الله ما نزل بك ، فقد جرد أمير المؤمنين سيفاً لم يجرده قط ، وبسط نطعاً لم يبسطه قط ، ثم قال : وقرابتى من رسول الله ﷺ لا رفعت السيف عن أحمد وصاحبه حتى يقول : « إن القرآن مخلوق » فجثا أحمد على ركبتيه ، ولحظ السماء بعينيه ودعا ، فما مضى الثلث الأول من الليل إلا ونحن بصيحة وضجة ، فأقبل علينا خادمه وهو يقول : صدقت يا أحمد . القرآن كلام الله غير مخلوق ، لقد مات والله أمير المؤمنين ! » .

ثم أقبلت أيام المعتصم ، وهو رجل تركى المنبت لا يميل إلى الفكر ولا يعنى بأمر العلماء ، ولكنه ورث عن أخيه المأمون هذا الأمر ، فاشتد فيه بما عرف عنه من الشدة والعنف ؛ حتى لقد حدث ابن عياض أن المعتصم « حبس الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ثمانية وعشرين شهراً كان فيها يضرب بالسياط إلى أن يغمى عليه ، وينخس بالسيف حتى يرتمى على الأرض ويداس عليه » .

ثم مضت أيام المعتصم وأقبلت أيام الواثق فاشتدت المحنة على أحمد وهو صابر ثابت ، حتى مات الواثق ، وأقبل المتوكل فرفع المحنة عن أحمد وأمر باحضاره وإكرامه وكتب إلى الآفاق برد المحنة عنه وإظهار السنة ، وأن القرآن غير مخلوق ، ودعاه إلى قصره .

فلما دخله التفت إلى أمه وقال :

ـ يا أماه قد أنارت الدار بهذا الرجل ! .

لقد انتصرت الفكرة وفاز الإيمان ، لقد انتصر الرأى وأخفق السلطان ! .

نجدة المعتصم

أقبلت جحافل الروم تسعى إلى « زِبَطرة » من عواصم المسلمين فى آسيا الصغرى ، وكانت هذه البليدة حبيبة إلى نفس المعتصم يفردها بالعناية والتقدير ، لأنه نشأ فى أعطافها وحارب فى ظواهرها ، وأدرك مبلغ الفروسية والرجولة فى ميادينها وقلاعها . وكانت تقوم على باب دار الإسلام معقَلاً يلجأ إليه المسلمون إذا اشتد عليهم الأمر فى دار الحرب ، ومأوى يأوى إليه الخليفة كلما أجهدته شاتية أو آدته صائفة ، فكانت لهذا رباطاً جليلاً لاتسمع فيه غير صهيل الأفراس وصلصلة السيوف وهمهمة المرابط المجتهد الذى يقطع الوقت بين الغزوة والغزوة فى صلاة وصيام . وكانت تقوم على مخرم فى الجبل يُفضى إلى بلاد المسلمين ، فكان هؤلاء يحرصون على حراسته والرباط فيه ، وكان من أحب من المسلمين أن ينشأ نشأة الفارس المجاهد يتخذ من أمثال هذا الرباط وطناً له . إلى هنالك أرسل الرشيد ابنه أبا إسحاق ، فنشأ على أصدق ما يكون الجند شجاعة ، ونما على أحسن ما يكون الناس إسلاماً .

وكان تيوفيلوس ـ إمبراطور البيزنطية إذ ذاك ـ شديد العصبية لدولته ودينه ، وكان أستاذه يوحنا النحوى قد غرس فى نفسه من العداوة للمسلمين وللخارجين على الكنيسة فى بلاده ما أقض مضجعه طول حياته وجعله لا يكاد يحفل إلا للدين وشئونه . بل كان إذا خلا من حرب مع الخارجين أو العرب جلس إلى الأحبار يناقشهم فى شئون العقيدة ، وقد جلب غلواؤه هذا فى أمر الدين على الدولة البيزنطية من المتاعب ما جلبه تدخل معاصريه المأمون والمعتصم فى المناقشات الفقهية الفلسفية التى دارت حول مشكلة خلق القرآن بين علماء المسلمين ، فكان تيوفيلوس ـ رغم ما حز به من مسائل السياسية وثورات المنافسين ـ لا تكاد الفرصة تسنح له حتى يجمع جنده ويمضى بهم لحرب المسلمين لا يكاد يصرفه عن ذلك أمر .

فإذا كان تيوفيلوس فى حرب منافسه توماس فى سبيل العرش ، فقد تسامع بأن جيشاً من المسلمين قد دهم جزيرة كريد (إقريطش) وغلب البيزنطيين واستقر فيها ، ولم يكن هذا الجيش غير نفر من المسلمين الأندلييسن الذين ثاروا على الحكم الرَّبَضىّ فى الأندلس وكادوا يعصفون بالإمارة الأموية هناك لولا ثبات الحكم وقدرته . فلما انتصر عليهم طردهم من بلاده ، فأقبلوا يلتمسون المأوى حيث استطاعوا : نزلوا الإسكندرية حيناً فدافعهم أهلها عنها وطردوهم منها ، فمضوا إلى كريد واستخلصوها من البيزنطيين وأقاموا فيها ، وعبثاً حاول تيوفيلوس إخراجهم منها ، لأنهم كانوا أندلسيين شداداً ذوى جلد فى الحرب ، هزموا ثلاثة جيوش كبرى أرسلها عليهم بين سنتى ٨٢٦ , ٦٧٨ ، ولم يجد مفراً آخر الأمر من تركهم حيث أقاموا ، فجعلوا يروعون موانىء الدولة ومتاجرها حتى فاضت نفس الإمبراطور ورجاله بالحقد على هذه الحفنة من بواسل المسلمين .

ولم يكن هذا هو كل ما تهدد به الإسلام الدولة البيزنطية إذ ذاك من أخطار ، بل كان هناك ما هو أدهى : كانت الدولة على خلاف مع عاملها فى صقلية « أوْيفِميوس » فوثب بها فجعلت ترميه بالحملة بعد الحملة تريد رده إلى الطاعة ، ووجد الرجل أمره ذاهبا إلى ضياع ، فبعث يستنجد بزيادة الله بن الأغلب أمير المسلمين فى تونس ، فبعث هذا بحملة يقودها قاضى القيروان أسد بن الفرات ، وكان أسد شيخاً مسنا يناهز السبعين ، ولكن الله رزقه حمية للدين وجلداً على الجهاد حتى لكان يحمل الراية بيده فى المعركة فتصيبه الحراب ويسيل الدم من ذراعه وهو ممسك بالراية لا يدعها ، ويقف يدبر الحرب اليوم بعد اليوم لايكاد يدركه التعب ، فما زال بالبيزنطيين حتى طردهم من صقلية وأقر فيها راية الإسلام .

هكذا أحس تيوفيليوس يد المسلمين ثقيلة عليه : وجدهم يحاربونه فى كريد وفى صقلية وفى آسية الصغرى ، وهو لا يستطيع لهم مقاومة ولا ردا ، فلبث يتحين فرصة ينالهم فيها شىء ، فما إن تسامع باشتباك جنود المأمون فى حرب « بابَك الخُرَّمى » وانصرافها إلى القضاء عليه حتى استولى بجنده على « المصيصة » وتقدمت جحافله نحو « زبطرة » ففجأتها ، ولم يكن أهلها على أهبة ، ولكنهم تسارعوا إلى أسوار البلد ، وأخذوايناجزون العدو ويحاولون إيقافه حتى تأتيهم النجدات ، وبعثوا يستنجدون بالخليفة ، فإذا جنده فى شغل بمحاربة هذا الزنديق « بابك » ، فمضوا يحاربون حتى نفدت أقواتهم وهلك حماتهم واقتحم العدو

عليهم الأسوار ، وعَلِم تيوفيليوس ورجاله أن هذا البلد موطن صبا المعتصم فزاد فى النكاية فى أهله مبالغة فى الأذى وزيادة فى اللدد ، وأمر تيوفيليوس فاحتُفل فى بلاد الروم أجمعها بهذا النصر .

وتمشى الخوف فى بلاد المسلمين ، وانطلق من نجا منهم من المذبحة يرجف بأخبارها ، وتصايح الناس بأنباء الفاجعة ، وبدأ الحماة يستعدون للجهاد . ولم تكذب ظنون الخائفين ، فإن الروم تشجعوا ، فمضوا بقواتهم إلى ما وراء « زبطرة » من بلاد المسلمين وأنزلوا بأهلها من الظلم والأذى شيئاً بالغاً ، حتى أصبحت البلاد خراباً يباباً لا أثر فيها للحياة . وهمَّ المسلمون بأهلهم وعيالهم فراراً من الأسر ونجاة من الاسترقاق ، وتعقبهم الروم حتى أصبح المساكين كأوابد الطير يقتنصها الرماة بالسهام ، واشتد الأمر بالمسلمين فكانوا يسلمون أسرى يباعون فى الأسواق ، وبالغ تيوفيليوس « وسبى المسلمات ومثل بمن صار فى يده من المسلمين ، وسمل أعينهم وقطع أنوفهم وآذانهم » . بالغ فى ذلك مبالغة حاقد موتور لا يجد غير هؤلاء الأسرى المساكين يشفى فى آلامهم لدد نفسه ، « فضج الناس فى الأمصار واستغاثوا فى المساجد والديار » ، حتى إذا وقعت امرأة هاشمية من المسلمات فى الأسر وبصرت بنفسها يُسار بها إلى سوق الرقيق يتخطفها جُند الروم ويتندر بها جُهالهم ، خافت أن يشتريها رومى يتسراها ، وأدركها من ذلك ألم اجتمع فى نفسها حتى صار حسرة بالغة ، فلما برَّح بها الألم صاحت صيحة المستغيث : « وامعتصماه » .

فى ذلك الحين كان خليفة المسلمين أبو إسحاق يسمر مع طائفة من فرسانه بعد أن فرغ من حرب « بابك » وقضى عليه ، وكان أبو إسحاق بطبعه لا يشق له غبار فى ميادين الفروسية والحروب ؛ نشأ فى « سامرا » ، وصارت دار الحرب مقامه طوال حكم أخويه الأمين والمأمون ، وكان أبوه الرشيد يعرف فيه هذه النخوة فأفرده بميادين القتال وأوصاه خيراً ببلاد المسلمين . وكان يمضى حياته بين طائفة من الفرسان لا يفارقهم فى النهار ولاينطوى عنهم فى الليل ، يحارب معهم ويسمر وإياهم ، وكان فارساً أيِّداً « عظيم المرِّية يحمل ألف رطل ويمشى بها خطوات » كما يقول الفخرى فى الآداب السلطانية ، وكان إلى ذلك رقيق القلب شفيقا بالفقراء والضعفاء ، شأنه فى ذلك شأن كل فارس شهم ذى مروءة

وإيمان . حكوا أنه كان يسير مع جنده يوماً مطيراً إذ بصر بشيخ ضعيف غاص حماره فى الوحل ، وسقط ما عليه من الشوك الذى يستعمله أهل العراق فى التدفئة ، فأخرج الحمار من الطين وحمل الشوك فوضعه عليه ، ثم غسل يديه فى غدير واستوى على دابته ، ولحق به حرسه بخيلهم ، فأمر بعض خاصته أن يعطى الشيخ أربعة آلاف درهم ..

فلم يكد خبر الكارثة يبلغه حتى هب ينادى جنده للمسير ، ثم حمل إليه أحدهم نبأ الهاشمية التى استغاثت به فصاح : لبيك لبيك .. النفير النفير !

وتفرق دعاة الحرب فى بلاد المسلمين يستنفرون الناس للجهاد ، ودخل إبراهيم بن المهدى على المعتصم وأنشد :

يا غـــارة الله قــد عاينت فانتهـكى ... هتـكَ النساء ومـــا مـنهن يــرتكب

هـَب الرجـالَ على إجـرامهـا قُتلت ... مـا بـال أطفـالها بالذبـح تنتهـب ؟

ثم توافد عليه المنذرون يبلغون ما كان من عدوان تيوفيلوس وما أوقع فيه بلاد المسلمين من خراب .

هنالك هب المعتصم وهب معه جنوده ، ومضى إلى معسكره فاتخذ عدته وسار إلى أرض الروم فى جيش كبير ، فتراجعت أمامه قوات العدو مدحورة لا تلوى على شيء حتى أدركت « عَمّورية » فاحتمت فيها ، وكانت هذه أمنع معاقل الروم وأحبها إلى تيوفيلوس ، إذ يزعم الرواة أنه ولد فيها . وأقبل المعتصم إليها وحصرها حصراً شديداً ، فلما اشتد الأمر بحاميتها بعثت سفراء يستحلفون المعتصم إلا خلى عنهم وأبقى على رجالهم ونسائهم ، ولكنه أبى واعتقل الرسل ومضى فى الحصار ، واستمر الأمر خمسة وخمسين يوما حتى لم يبق للمدينة بد من التسليم ، ثم فُتحت أبوابها فاستباح المسلمون حماها وأعملوا سيوفهم فى أهلها ، وأسرع الروم فردُّوا إلى المعتصم المسلمةَ التى استغاثت به ، ولكن هذا لم يصرفه عن أن يسوى « عَمّورية » بالتراب ، كما سويت زبطرة بالتراب من قبل .

فزع الإمبراطور وأدركه من ذلك هم بالغ ، وأيقن أن خليفة المسلمين سائر إليه بجنده قاض عليه وعلى ما بقى له من مُلك ، فأخذ يستحث جنده ويدفعهم إلى حرب المسلمين

دفعاً ، ولكن هؤلاء كانوا قد ذلقوا من سيوف المسلمين ما ملأ صدولرهم حقدا على أميرهم الذى ساقهم إلى هذا الهلاك ، فأبوا على سيدهم المضى فى هذه الحروب التى لا تنبىء إلا بالخراب العاجل ، ثم حذروه من هذه الخصومة التى قد تنتهى بالقسطنطينيه نفسها إلى ماانتهت إليه عَمّورية ، واقترحوا عليه أن يسلم للمسلمين بما يريدون ، وأن يتقى شرهم إن كان يحرص على ما هو فيه من عزٍ وسلطان .

تأمل تيوفيلوس فى الأمر ، وقلبه على وجوهه فاستبان له رشاد ما قالوا وتحقق صدق ماذهب إليه قواده ، وسرت فى جسده رعدة من الخوف من المعتصم الذى كان يعد العدة ليخلص المسلمين من الروم جملة ، وتحدث إلى قواده ورجال دولته فى أنه يود لو قضى على هذه البقية الباقية من الروم التى تقف للمسلمين كأنها الشوكة فى الجنب أو القذى فى الحلق ، ومضى يعد العدة لذلك .

بعث الإمبراطور رسله يضرعون إلى الخليفة ويسألونه أن يعفيهم من هذا البلاء الذى يريده بهم ، وأعادوا على سمعه آيات من القرآن توصى بالنصارى وتحض المسلمين على أن يترفقوا بهم وأن يشفقوا عليهم لأنهم أهل كتاب ، وأنهم أكثر الناس مودة للمسلمين .

فعلت كلمات الرسل أفاعيلها فى نفس المعتصم فسرى عنه بعض ما به ، ومالت به رحمة المسلم وشفقة المؤمن ألا يخيب رجاء من التمس فضلا من مروءته ، وجمع مجلساً من قواد جنده وشاورهم فى الأمر فأقروه عليه .

كان ذلك فى سنة ٨٢٨ م (٢٢٣ هـ) ، واعتلى المعتصم عرشه وطلب الرسل فأقبلوا يقبلون الأرض بين يديه ، ويسألونه ما انتهى إليه فى أمرهم ؛ فقال لهم فى سكون : « نبئوا سيدكم بأننى أديت دين زبطرة .. » .

عصامى مسلم

المنصور بن أبى عامر

انصرف الطلبة من جامع قرطبة بعد يوم طويل تقَضَّي فى حلقات الدرس ، وخلا المكان إلا من نفر من الصحاب اعتادوا أن يمكثوا فى المسجد إذا انصرف الناس ، ليقضوا هناك زمانا يتناولون فيه أخبار السياسة وحديث العلم ، ويتذاكرون فيه سيرَ الماضين ويتنقلون بهذه الأحاديث الحلوة التى يستريح إليها الشباب الطامع من أهل المدن . وكان الجمع منصرفا إلى الحديث انصرافا شديدا ، وكانت المناقشة على أشدها والآراء تشتبك وتزيدها الفتوة اشتعالا ، ولم يكن هؤلاء الطلبة راضين عما آلات إليه سياسة الدولة على أيامهم ، كانوا يرقبون بعين المحزون اشتداد الضعف بالدولة الأموية الأندلسية ، وكانوا يرجفون خيفة من شراذم المسيحية التى بدأت الأمور تتصل بين بعضها وبعض فيما يلى بلاد المسلمين من الشمال ، وأخذ جندها ينوشون أطراف دار الإسلام حتى هددوا لارِدَة وبَطَلْيَوْس .

كان خلفاء بنى أمية من سلالة عبد الرحمن الداخل الأموى قد انحدر أمرهم وضعفت شوكتهم وعَلَت فى دولتهم صولة الوزراء ، وأصبحت الحكومة نهبا موزعا بين الطامعين من الوزراء ، والحجاب ، ولم تعد للدولة سياستها الموضوعة ولا نظامها المحكم الذى عرفه الناس من أيام الداخل إلى أيام الحكم المستنصر ، وكان وزير تلك الأيام وصاحب سياستها أبو جعفر المصحفى ، شيخاً وهبه الله من الدهاء والحيلة قدراً استطاع به أن يسود رجال الدولة ، وأن يصبح القابض على زمام الأمور وتصريف السياسة على الوجه الذى يرضاه ، ومن هنا دب الاضطراب فى نواحى الإدارة وشملت الفوضى جوانب الحكومة ، فجلس للقضاء من يجهل الفقه ، وقاد الحرب من لا يعرف الحرب ، وولى الحكم من ترفعه فى نظر الوزير صلة القرابة لا قدرة الحكم ولا ملكة التنظيم .

كان هذا الأمر يشغل بال الطالب محمد بن أبى عامر ، ويشيع فى نواحى نفسه هما ناصبا ، فانصرف عن رفاقه وتشاغل عنهم بهذه الخواطر المحزونة التى أخذت تطوف برأسه فتخيفه على مصير الدولة الأندلسية العريقة . ولم يكن الفتى قرشيا ، بل لم يكن عدنانيا ، وكان هذا سرا من أسرار الموجدة التى يعانيها ، فما يستطيع غير القرشى أن يوفق إلى كثير فى دولة القرشيين ، وما يستطيع قحطانى من مَعَافِرٍ أن يبلغ شيئا فى سطوة العدنانيين . وكان المروانيون الأندلسيون قد جروا على اختصاص أسر بعينها بالحكم والوزارة ، ولم يكن يدور بخلد أندلسى لا ينتسب إلى بنى أبى عبدة أو بنى شُهيد أو بنى جَهْوَر - ومن شابه هؤلاء من أولياء الأمويين - أن يصل فى هذه الدولة إلى كبير أمر . ولم يكن المصحفى من إحدى هذه الأسر ، إنما كان شيخا إفريقى الأصل رفعته شاعرية صافية كانت تجُرى على لسانه قطعًا من الشعر الصادق بين الحين والحين ، وكان الحظ المُواتى قد جعله أستاذًا للحكم المستنصر فى صباه ، وكان الحكم صاحب ميل للعلم وحب للشعر قبل أن يكون صاحب أمر وصولجان ، فأعجب بأستاذه وألقى إليه قيادة الأمور حينما شاءت إرادة الله أن يختار أباه الناصر إلى جواره ، فتمطى الشيخ فى كرسى الوزارة وصال وتبختر ، وقد فاته أن قيادة الناس غير قيادة القوافى ، فما زال العجب يرفعه والكبرياء تبطره ، حتى أفسد أمور الدولة ببنيه ، وأفسد قلوب الناس عليه بما كان يرزؤهم به من أفاعيله .

ولكن الفتى كان على عزم ثابت وإيمان وثيق ، فلم يفقد أمله فى الإصلاح ولا تزعزعت عزيمته فى الله الذى ييسر للخيرين سبيل الخير ، ويوفق الصالحين إلى ما فيه صلاح المسلمين . كانت هذه الأفكار تترى على نفس الفتى وهو مطرق بين إخوانه منصرف عنهم وكان قد ثاب له رأى فى المشاركة فى السياسة والمدافعة فى ميدانها . وأخذ يستعرض فى نفسه رجالَ العصر وأصحاب الأمر فلم ترض نفسه عنهم ، وأنشأ أصحابه يتندرون به ويركبونه بالسخرية ، ويحملون أفكاره على محمل المجون ، ويرونها وسيلة طيبة للضحك والعبث ، وقدراعهم أن يخرج الفتى عن صمته فإذا هو يسألهم رأيهم فيه وزيرا ! هنا لم يملك إخوانه أن أرسلوا أنفسهم مع الضحك فضحكوا ما شاءت لهم نفوسهم ، وسخروا ما وسعتهم السخرية ، فإذا الفتى لا يحفل بهم ولا يلقى بالا إلى ما يركبونه به من سخرية ، وإذا به يسألهم رأيهم فى محمد بن السليم قاضياً لقرطبة ! فازداد الفتيان عجبا ، واستبان لبعضهم

أن الفتى جاد فيما يقول ، وأن أحلامه تنطوى على الكثير من الجد والفراسة التى لا تخطىء مواقع الصدق ، فغدوا إليه يسألونه ما يصنع بهم إذا هو صار إلى ما يرجو من الجاه والسلطان ! وأخذوا يحملون أمانيهم ويرجونه إلا حققها لهم إذا أكرمه الله بما يرجو ، ولكن واحداً منهم لم ترض له نفسه أن يصدق أحلام هذا المسكين ، فتمنى عليه ـ إن هو صار وزيراً ـ أن يركبه حماراً ويطوف به فى شوارع قرطبة عاريا ! .

وبدأ الفتى حياته يكتب الرسائل للناس ، واتخذ له مكانا مختاراً فى الساحة الواسعة أمام القصر ، فكان غلمان البلاط وفتيانه يفدون عليه فيكتب لهم ما يريدون ، واشتهر أمره بينهم حتى ترامى ذكره إلى صبح البشكنسية زوج الخليفة الحكم ، فاستكتبته بضعة خطابات . وبدأت الأمور تتصل بينه وبين رجال القصر ، فلم تلبث مواهبه أن تجلت ، ولم يلبث أن أعجب به ابن السليم قاضى الحكم ، فذكره بالخير عند الوزير المصحفى ، وكان ابن أبى عامر ـ كما أسلفنا ـ معجبا بابن السليم مقدرًا فضله ، فاتصلت الأمور بين القاضى الفقيه والفتى الطامح ، فإذا احتاج الحكم لمربٍّ لابنه عبد الرحمن فقد قفز اسم ابن أبى عامر إلى مقدمة المرشحين ، وإذا عرضت الأسماء على صُبْح فقد اختارت ابن أبى عامر ، إذ هى تعلم من اقتداره الشىء الكثير .

هكذا بدأت الأمور تتصل بين ابن أبى عامر وبين صبح البشكنسية ، وكان الفتى شديد الذكاء واسع الحيلة ، يلمع الطالع السعيد فى عينيه ويطل القدر الباسم من ملامحه القوية الجميلة ، فاستراحت السيدة أن وجدت فيه عقلا هادياً يرد عنها وعن ابنها نزوات الطامعين من أمثال المصحفى وغالب وغيرهما ممن سنأتى على خبرهم ، ولم يلبث ابن أبى عامر أن تولى أعمال أم الخليفة فأحسن القيام عليها ، وتعهدها بما يكمن فى نفسه من المواهب والكفايات ، وازداد إعجاب السيدة الجليلة به حتى ليميل كثير من المؤرخين إلى القول بأن غراما قويا استعر بين أم الخليفه ومربى الأمير ، فذهب بعضهم إلى « أن ابن أبى عامر تمكن له فى قلب السيدة بما استمالها به من التحف والحذق ، ما لم يتمكن لغيره » وذهب دورزى المستشرق الهولندى إلى أن العلاقة بينهما كانت قصة غرام قوى يستوقف القارىء ويستدعى الشرح والإطالة . ولكننا لا نرى بأساً هنا من الاعتراض على أولئك الذين لا يرون بأساً فى اتهام السيدة لأنها صقلبية ، والصقالبة كانوا من المغضوب عليهم

عند الرعية ، إذْ كانوا جند الخلفاء خاصة . أما دورزى فحجته تسقط إذا عرفنا أنه كان مغرماً بمهاجمة العرب والمسلمين ، وأن كتبه تفيض بالسخرية منهم والعبث بتراثهم الجليل، ثم هو بعد ذلك صاحب خيال خصب يطغى على ذهنه بين الحين والحين . إنما كان الأمر بين أم الخلفية والمربى أنها أعجبت به إعجاب اليصابات بوالتر رالى ، وإعجاب فكتوريا بدزرائيلى ، وإعجاب كل ملكة وكل صاحب سلطان بالقادرين النابهين من الرجال والعمال . ولعل زمرًا آخر يقوى حجتنا ويثبت للقارىء صحةَ ما نحن قائلون ، وهو إعجاب الوزير المصحفى بالفتى المربى ، ولو قد عرف المصحفى بأمر هذه الصلة لعصف بالفتى وهو على أبواب الشهرة وبعد الصيت ، وإنما الحقيقة أن ابن أبى عامر « كان من أسرة تكررت فيها النباهة والوجاهة ، وجاور الخلفاء منهم بقرطبة جماعة ، فلم تكن تُستكثر عليه القرابة من بيت السلطان » ، كما يقول ابن عذارى .

بدأ ابن أبى عامر يرسم خطته التى أفضت به إلى الغاية التى يحلم بها ، وكان هذا الفتى من الأفراد القلائل الذين استطاعوا أن ينفذوا السياسة التى رسموها فى دقة وصبر وأناة ، فلم يلبث أن أصبح ذا سطوة فى القصر ورأى مسموع عند الوزير وأم الخليفة ، وكان يرى من استبداد المصحفى بالأمر ما يبعث السخط فى نفسه . وكان يقدر بفطانته أن أمثال هذا الوزير وأنصاره لا بد مناوئوه وواقفون فى سبيله إذا هو حاول أن يتخطى موضعه كمرب وكاتب أو قيّم على الأمير القاصر ، فصدقت نيته على الخلاص من المصحفى ورده عن هذه الأمور التى كان يتولاها وهو لا يدرك من أمرها قليلا ولا كثيراً .

هنا بدأ الصراع بين الرجلين : فأما ابن أبى عامر فلم يلجأ إلى الغدر والخيانة ، وإنما بحث عن موضع الضعف فى سياسة المصحفى وهو تصرفه فى مال الدولة على هواه دون رقيب . وكانت الأمور مواتية لابن أبى عامر ، ذلك أن ولى العهد عبدَ الرحمن كان قد توفى، وصارت الولاية إلى صبى صغير هو هشام ، وأخذ المصحفى وأمثاله يرشحون للعرش من يرضون عنها إذا مات الخليفة الحكم . وكانت صبح أم ولى العهد خائفة من هؤلاء المتربصين تبحث عن سند يعينها على بقاء الأمر فى يد وليدها إذا مضى زوجها الحكم إلى بارئه . وكان ابن أبى عامر يدبر أملاك هذا الصبى الصغير ، وكانت صبح تثق فيه وتود لو أعانته على الارتفاع فى المناصب حتى يدفع عنها غوائل الخصوم يومُ القدر المحتوم ، فلم

تزل به حتى أقامته على بيت المال ؛ فلم يكذّب الفتى أن أقبل يضبط الحساب ، فإذا الخزانة تئن من كثرة ما يسطو عليها الوزير . فإذا وثق ابن أبى عامر من ذلك فقد أعلن المصحفى بالأمر وأقبل يحاسبه على ما ضيع من مال الدولة ، ثم طالب بعقد مجلس لمحاكمة الوزير. وفطن ابن أبى عامر إلى أن شركاء المصحفىّ فى الوزارة ناقمون عليه ، وأن الأسر العريقة فى الوزارة والحجابة كانت تنكر عليه ما وصل إليه ، فترقب اللحظة المناسبة للإيقاع به والخلاص من أمره . وكان المصحفى قد ملأ وظائف الدولة ببنيه ، فأقام ابنه على شرطة قرطبة وأطلق له الحبل على الغارب ، فعبث الفتى بشئون الناس وأموالهم عبثاً شديداً ، فجعل ابن أبى عامر يجمع البينات ضد المصحفى وآله ، ويجمع الغاضبين عليهم حتى أصبحوا يداً واحدة . فلما اطمأن إلى هذا أعلن بدء المحاكمة ، فأسقط المصحفى عن الوزارة وعزل بنيه واتهمهم بالتبديد وسوء التصرف ، ودعا أعداءهم للشهادة فلم تكد المحاكمة تبدأ حتى حكم المجلس بعزله ومصادرة أملاكه وطرد أقاربه وأولاده من مناصب الدولة ..

هكذا خلص ابن أبى عامر من هذا الخصم ، وأصبح فى ميسوره أن يبدأ فى إنفاذ ما كان قد وطد العزم على إنفاذه من إصلاح أمور الخلافة وإعادة الدولة الإسلامية إلى ما كانت عليه أيام الناصر .

خلا مركز الحاجب فاحتله ابن أبى عامر تؤيده أم الخليفة ، وازداد سلطانه فى القصر حتى أصبح القوة المتصرفة فى الدولة الأندلسية كلها ، وكان الرجل من بناة الدول الذين لاتقصر همتهم عن النهوض بجلائل الأعمال . كان يعرف عرفان الواثق ما تحتاج إليه بلاد الأندلس من الإصلاح ، كان يدرك أنه لن يستطيع أمراً إلا إذا تركت له الأمور يصرفها دون أن يعترض معترض أو يأخذ السبيل عليه حانق أو حاسد ، فأحب أن يبعد الحكومة عنو القصر لكى يقطع السبيل على المحسوبين وذوى الحسب والقربى من البلاط ، فأنشأ يبنى على مقربة من قرطبة مدينة قائمة بنفسها للحكومة ومرافق الدولة أسماها « الزاهرة » ، وبدأ الناس يتوافدون على المدينة الجديدة ، حتى امتدت واتصلت عمارتها بعمارة قرطبة .

وكان الخليفة هشام قد أيفع فى هذه الفترة ، وبدأ المحيطون به يبصّرونه بالأمور ويحفزونه

على الثورة على ابن أبى عامر ، فأسرع ابن أبى عامر وقطع صلة الخليفة بمن عسى أن تحدثه نفسه بالدس والواقيعة ، وقضى على الخليفة بأن يلزم القصر وأن يقصر همه على العبادة والصلاة والصوم ، فهذه الأعمال أجدى على الخلافة والخليفة العاجز المحدود المواهب من عبث السياسة والمدافعة فيها ، وكان الفتى منصرفاً بطبعه إلى أمور العبادة فأطاع ورضى ، وفوض الأمر كله للمعافرى العظيم . ولو قد فعل ابن أبى عامر هذا بأمير آخر لكانت لنا عليه مآخذ ، ولكن الواقع أن هشاماً المؤيد كان أميراً مستضعفا خاملا ، لا تكاد همته تصبو إلى عظيم من الأمور . ولسنا ندرى أأفسدته أمه بالإسراف فى تدليله وإبلاغه حاجاته من الصغر ، أم كان هو نفسه غفلا عاطلا من كل موهبة بطبعه؟ وكل ما نعرفه أنه هو نفسه كان يأبى أن يتولى قيادة الأمور حتى بعد أن زال شبح ابن أبى عامر ، وقد ظل طوال حكمه لا يكاد يخلص من مستبد حتى يترك الأمور لمستبد آخر ، كأنه كان راغباً عن القيادة شاعراً بعجزه عنها . ولو لم يفعل ابن أبى عامر ما فعل لتولى الوصاية عليه مستبداً آخر أسوأ من ابن أبى عامر . وكان الوقت حرجاً والأمر مضطرباً ، فكان استيلاؤه على الأمور على هذا النحو أمراً تستلزمه مصالح المسلمين ، وقد أثبتت الأيام أنه كان أصلح الناس للقيام بهذا الأمر ، بل أصلح من تعرض لمثله فى تاريخ الإسلام الطويل ، وقد رزقه الله من الذكاء وبعد الهمة واطراد النشاط وصدق الإسلام وحنكة السياسة ما لم يتح لغيره من عظماء الأندلس .

ثم توجه ابن أبى عامر إلى الجيش يصلحه ، وكانت القوة الحربية للدولة الأندلسية قد بدأت تضعف لقلة القادة القادرين على رءوس الجند ، وكان نفر من أصحاب الكلمة فى الجيش قد انحاز إلى الثغور واعتصم فيها ، وأقام نفسه حاكما بأمره لا تستطيع الحكومة معارضته أو إنكار شىء عليه ، وشغل هؤلاء القادة بشئونهم عن سد ثغور المسلمين ، فانحط أمر الجيش الإسلامى إلى درجة بعثت الحياة فى دول النصارى التى كانت ترقب مصير الدولة الإسلامية باهتمام زائد ، فأخذ أمراؤها يتواصلون ويدبرون ، ثم حزموا أمرهم وأخذوا يتقدمون فى البلاد الإسلامية على مهل ، ولم ينهض قادة الثغور لردهم خوفاً من أن يفضى ذلك إلى إضعاف قواتهم ، وهم يدخرونها لمناهضة رجال الدولة نفسها .

وبهذا بدأت الخيانة تتمشى فى نفوس القواد من أمثال « غالب » صاحب الثغور الشمالية و « زيرى » صاحب الثغور الإفريقية ؛ فلما انتهت الأمور إلى يد ابن أبى عامر على

هذا النحو وجد أن إصلاح أمر هذا الجيش القائم قد يعسر عليه ، فبدأ ينشىء جيشاً جديداً . وأعانه على ذلك أن طائفة كبيرة من بربر إفريقية كانت تعانى الأمرين فى إفريقية من عداوة شديدة أصر عليها أمراء الأدارسة أصحاب فاس ، وكان الصراع بينهم وبين بنى عمومتهم أصحاب الأمر فى القيروان قد انتهى بهم إلى هزيمة جعلت وجودهم فى الميزان . وترامت أخبارهم إلى ابن أبى عامر فمد لهم يده ، وعبر بهم إلى الأندلس ، وأنشأ ينظمهم ويعدهم حتى صار له منهم جيش قوى كان له أعظم الأثر فى الفتوح الجليلة التى قادها فيها بعد . وكان هناك نفر من الجند المسيحيين اشتدت بهم المسغبة فى بلادهم بعد أن حصرهم المسلمون فى الجبال حصراً شديداً ، فتشردوا وهاموا على وجوههم يلتمسون العمل تحت إمرة أى قائد ، فأسرع ابن أبى عامر واستقدمهم ، ولا ريب أنه كان يأمل إدخالهم فى الإسلام ، واكتمل له من هؤلاء وأولئك جيش عظيم .

استطاع ابن أبى عامر أن يدخل على الجيوش الإسلامية نظاماً لم تعهده من قبل : كانت الجيوش إلى عهده تتكون من فرق وقبائل لكل قبيلة رئيسها وقادتها ، يشتركون فى الحرب معاً ويقتسمون الغنائم معاً ، أما رجلنا فقد جعل الجيش كله وحدة متماسكة لا يشذ عنها جندى ولا يخالف نظامها قائد ؛ ولعل هذا يرجع بذهننا إلى الإصلاح العسكرى الذى أدخله بامنناداس على الجيوش الإغريقية قبل الإسكندر ، والذى ظهرت نتائجه واضحة جلية فى انتصارات الفتى المقدونى التى ملأت صحائف التاريخ . كان النظام فى جيوش ابن أبى عامر أمراً جديداً لم يعهده المسلمون فى جيوشهم ، فجعل الناس يتحدثون عنه ويستغربونه ويقصون فى ذلك النوادر التى تذهب مذاهب الأساطير ، كالذى يحكون من أن المنصور أعدم جندياً لأنه أخرج السيف من قرابه أثناء العرض العام .

ثم بدأ جنود المسلمين يزحفون إلى الشمال ، وكان المنصور ينوى أن يطهر « أيبريا » كلها من النصارى ودويلاتهم ، بدأ جنوده فاكتسحوا ليون ومضوا إلى الشمال حتى لم يبق للأعداء إلا هذه الزاوية الجبلية القاصية فتتبعوهم إليها ، وضاقت بهم الأرض فأخذوا يهاجرون . وتقدم المنصور حتى أشرف على مكان منقطع كان الأعداء يعتصمون فيه ، فإذا أدركه فقد وجده خِوَاء لا يعمره إنسان ، ووجد فى وسطه قبراً لقديس مسيحى يحج إليه الناس من أقصى أطراف المعمورة هو القديس يعقوب أو « سنت ياقوب » . كان المنصور

يعرف حرمة هذا القديس عند النصارى ، فلما أشرف عليه وجد عنده راهبين لم يسمحا لنفسيهما بالفرار وترك القديس للمسلمين ، فلم يملك المنصور إلا أن أمر جنوده ألا يعتدوا على الراهبين ، وأن يتركوا المزار على ما هو عليه ، وهكذا دل الرجل على الشهامة الصادقة والإيمان العظيم ، وضرب للناس مثلاً للمسلم الصحيح كيف يكون إذا صدق إسلامه .

لبث المنصور على هذه الهمَّة طوال حياته ، غزا فى أثنائها خمسين غزوة لم يعرف الهزيمة فى واحـدة منها ، ودان له شبه الجزيرة جميعه حتى لم يعد يجرؤ إنسان على منازعته أو مطاولته ، وحتى انتشر رعبه فى قلوب أعدائه إلى حد جرى مجرى الأساطير .

يزعم ابن عذارى أن الرجل ضرب معسكره ذات مرة فى مكان ، وأقام عَلمه على رابية قريبة ، ثم بدا له فغادر المكان ونسى العلم مكانه ، فلبث الأعداء شهوراً لا يجرؤون على الاقتراب من العَلم مخافة المنصور .

وكان المنصور صبوراً على العمل لا يكاد يكل أو يسأم ، كان يقضى معظم الليل يدرس شئون الدولة ، فإذا انصرف الناس عنه جلس وحده مفكراً ، وقد أسرف فى ذلك إسرافاً أصابه منه اضطراب فى أعصابه ، وكان خدمه إذا وجدوه يسرف على نفسه هذا الإسراف يُذَكّرونه بما يجره هذا السهر من علة العصب ، فكان يقول : « لو نمت الليل ما نام أحد فى هذا القطر آمناً » .

وكانت فيه للصغار والمستضعفينَ رقة ، ما تقدم إليه مسكين فى أمر إلا نهض فى إتمامه وما أحس إخلاص أحد من أنصاره إلا بادر بمكافأته ، وله فى ذلك أخبار تدل على همة بالغة :

تقدم إليه أحد جنوده من البربر يريد شكره ، ولم يكن يحسن العربية ، فاضطرب لسانه ببضع كلمات أثارت ضحك الأندلسيين ، وكان الأندلسيون قوماً ساخرين لا يكاد يرضيهم شىء ، فمضـوا يضحكون من البربرى ، فلم يـكن مـن المنصور إلا أن قال لهم : « هكذا يا إخواننـا فلتشكر النعـم ، لا ما تملأون بـه أفواهكم مـن التشدق بعبارات وقعاقع ... » .

ولم يكن المنصور ليقوم بفتوحه حباً فى الشهرة أو إرضاء لشهوة الغلب والانتصار ، وإنما

كان مؤمناً صادقاً يفهم رسالة الإسلام حق فهمها ، ويقدر الجهاد فى سبيل الله قدره ، وكان أعز أمانيه أن يتوفاه الله فى دار الحرب ، فيموت مجاهداً فى سبيل الإسلام . وكانت وطنيته مضرب المثل ؛ حدث أن أكبر أبنائه عبد الله خالفه فى بعض الأمور ثم هرب إلى الأعداء وانضم إليهم ، فكان عقابه الموت . هكذا يطغى الإيمان على عواطف البنوة والقرابة ، وهى أقوى عواطف الإنسان ، وهكذا يعطينا المنصور مثلاً آخر من أمثلة التفانى فى سبيل فكرة عالية مرسومة . كان الرجل جندياً صادقاً قضى أغلب أيامه فى دار الحرب مجاهداً ، كان يجمع الغبار الذى يعلق بثيابه فى ساحة الوغى ، ويحفظه أينما سار تبركاً به ، وكان جنوده يطمئنون إلى النصر تحت لوائه ، فلبثوا معه يداً واحدة طوال حروبه ، ولازمته هذه الصفة حتى لقبه الناس بالمنصور .

وبعد ، فأنت حرى بالتماس سيرته فى كتب التاريخ الأندلسى ، وإنك لواجد فيها تصويراً بديعاً لهذا الرجل الذى لا نظفر بمثله فى صفحات التاريخ الإسلامى إلا فى القليل النادر : فهذا فتى سمت به الهمة إلى المُلك والسلطان فبلغ منهما ما أراد ، ولم يبلغهما ليتبحبح فى عزهما وينعم بما يجلبانه من الخير والوفرة ، وإنما لكى يملأ الدنيا نصراً وفخراً ، فلم يعتز الإسلام براية فى الأندلس هى أرفع من راية المنصور ، وما بالك براية انعقد بلوائها خمسون نصراً لدين الله ! .

لعلنا لو عرفنا ذلك لرددنا مع الشاعر الذى كتب على قبره :

آثاره تنبيك عن أخباره … حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتى الزمان بمثله … أبداً ، ولا يحمى الثغور سواه !

مسلم عظيم

نور الدين محمود

يعرف الناس عن صلاح الدين بن يوسف بن أيوب شيئاً كثيراً ، يعرفون أنه رجل الحروب الصليبية وواحدها ، والمفرد العلم بين الأبطال الشرقيين ، وجامع الإسلام إلى لواء الوحدة بعد طول تفرق ، وقائده أمام عدو شديد عبر البحر إلى بلاد المسلمين ، واستقر شجىً فى حلقها بضع عشرات من السنين قاربت القرن طولاً ، دون أن يستطيع هؤلاء جمع شتاتهم والسير إلى هذا العدو المهاجم ، والانتصاف منه لجلال الدين وحرمة أهله وكرامة الأوطان .

ولو قد اجتمع المسلمون عاماً واحداً لقضوا على هذا العدو خلال ذلك العام ، ولكن ما الحيلة وقد خلق الله قلوبنا نحن المشارقَة على تفرق لا يكاد يلتئم إلا بما يشبه المصادفة والإرغام ! وما بالك فى قوم يستقر بينهم عدو يغتالهم واحداً بعد واحد ، ويفرض عليهم الجزَى فريقاً بعد فريق ، ويتقدم كل يوم خطوة نحو الجنوب يريد السير نحو البيت الحرام حبة قلوب المسلمين ، فلا يتفضل أمراء المسلمين إلا بحركات تشبه العبث : سَرية هنا وغزوة هناك ، وكتاب من هذا وتهديد من ذاك ! فأما أن يتحد القوم ويبرزوا للعدو فأمر لم يخطر على البال ..

حتى أقبل صلاح الدين ، ولم يكن من طراز معاصريه ، ولا من أصحاب الدعة والعافية، فتطلع منذ اللحظة الأولى إلى الوحدة ، فمن سعى إليها وانضم إلى العصبة الإسلامية فقد سلم ، وإلا فلينذر بشر مستطير . ومن ثم لا غرابة فى أن ينعقد إجماع المؤرخين على أن النصر فى هذه الحروب عقد بلوائه ، وتوثق بسبب ما كان له من قدرة فى الحرب ، وما تيسر له من صدق الإيمان وجلال الفروسية وهيبة الرجولة وحكمة السياسة ،

التى أيدت الإسلام ونصرت كلمته ، ورفعت راية الشرق بعد أن أزرى به الأوربيون إزراء بالغاً .

ولكن الناس يعرفون القليل عن « نور الدين محمود » الذى سبق صلاح الدين ، ومهد له وجعل نصره ميسوراً بل هيناً ، وينسون أن نور الدين كان يفضل صلاح الدين بالكثير . فقد كان صلاح الدين ـ كغيره من منشىء الدولات وقواد الحروب ـ شديد الحرص والأنانية لا يكاد يتشمم ريح خطر من ناحية إلا تغيرت نفسه ، وغاضت فيها عيون الحلم والرأفة وعصف بمن خامره الشك فى أمرهم عصف من لا يبقى . وكانت مشاريعه ومطالبه متعددة لا تنتهى ، فكانت حاجته للمال لا تنتهى أيضاً ، وكان عماله وجباته من أشد خلق الله على الناس ، ما أبصروا بالبلد تاجراً إلا قصموا ظهره ، وما بدت على إنسان علامة من علامات اليسار إلا أنذر بعذاب من رجال السلطان . وكان الفلاحون والضعفاء معه فى جهد : ما أينعت فى حقولهم ثمرة إلا تلقفها الجباة ، ولا بدت سنبلة قمح إلا استقرت فى خزائن السلطان ، حتى أملق الناس فى أيامه ، وخلفهم على أبواب محن ومجاعات حصدتهم حصداً . وربما كان لصلاح الدين ورجاله بعض العذر فى هذه الشدة ، فقد كان الظرف يتطلب رجلاً حازماً شديداً ، لا يكاد يحفل إلا للمطلب الأسمى وهو إنقاذ الإسلام والمسلمين من خطر الهلاك على أيدى الصليبيين .

أما نور الدين فكان فارساً مسلماً شديد الإيمان بضرورة إنقاذ كرامة الإسلام مما تعرضت له على يد الأعداء ، كان ينطوى فى كل نزعة من نزعاته على إيمان صحيح لا يخالطه إفك من أساليب السياسة ، ولا رجس من أفاعيل النفس البشرية ، لم يكن كأبيه « عماد الدين زنكى » ينشد ملكاً بأى ثمن ، ولا يتردد فى مصالحة الصليبيين والمضى معهم إلى حيث يريدون ، ولا يحفل وضَعَ يده فى يد مسلم أو نصرانى مادام الأمر ينتهى باتساع ملكه أو زيادة موارده .

وكان المسلمون قبيل عصر نور الدين قد تحولوا إلى شىء عجيب لا يمكننا تصوره فى يسر : أصبحت غالبيتهم لا تحفل للإسلام ولا ترعاه ، وكان أمراؤهم قادتَهم فى هذا البلاء الذى كانوا ينزلونه بأنفسهم وببلادهم ، فقد نزل الصليبيون بلادهم فى أواخر القرن الحادى

عشر الميلادى ، واستقروا وأنشأوا الدولات فى قلب بلاد المسلمين ، فكان همُّ الأمير منهم حماية أرضه والبقاء على عرشه المتواضع ، يدفع الجزية للنصارى ويكاد يستأذنهم فى كل عمل يأتيه . ولم يقتصر ذلك على صغار الأمراء بل فعله كبارهم فى غير خجل ، فكان خلفاء الفاطميين ووزراؤهم (العظام !) أحلافاً للفرنج ، بل تابعين لهم ، يؤدون الجزية ويحمدون الله على السلامة ، وكان أمراء حلب ودمشق والموصل يواصلون الفرنج ويهادنونهم وينعمون برضاهم . ولم تكن الرعية خيراً من الأمراء ، كان السلطان إذا زاد فى الضريبة على جماعة ، أو مس امتيازات جماعة ، لوحت بالانضمام إلى الفرنج ، بل انضمت إليهم فعلاً ، وسارت فى ركابهم تقتل المسلمين وتسبى نساءهم بلا رحمة ولا إيمان .

وكان يخيل للمتأمل فى أحداث هذا العصر أن ساعة الإسلام قد دقت ، وأن زمانه قد ولى ، فقد أقبلت عليه جموع النصرانية تهاجمه بعرض البحر الأبيض المتوسط ، والتقى المسلمون مع الفرنج فى حرب هى حياة أو موت فى ميدان يمتد من طرف الغار فى أقصى الجزيرة الأندلسية إلى أقصى الموصل شمالاً ، وأخذت جموع المسلمين تتراجع فى اتصال محزن حتى ظن أحدهم ـ وهو ريجنالد صاحب الكرك ـ أنه فاتح مكةَ والمدينة وقاضٍ على الإسلام وأهله ! ولم تروع هذه الدعوى مع ذلك أحداً ! ظل أصحابنا الفاطميون يهتون أنفسهم بما يجتمع فى خزائنهم من قطع الذهب ، وظل أمراء دمشق وحماه يلتمسون مواقع رضى ملك بيت المقدس النصرانى ، وظل العربان فى بوادى الشام يأخذون الإتاوات من الفرنج ثمناً للخيانة ، حتى جاء نور الدين فتغير ذلك كله ، فقد طالع الناس بسياسة إسلامية صريحة لا تعرف الحيلة أو المداورة ، وجابه النصارى بعداء صريح لا يعرف مرونة السياسة ، ومضى يؤيد الإسلام تأييداً متصلاً ، لا يكاد قلبه يعرف نوازع الطمع ولا بوادر الحسد.

لم يكن نور الدين بالجندى الماهر ولا بالسياسى الضليع ، وإنما كان المؤمن الذى يغنيه الإيمان الصادق عن مهارة القيادة وحنكة السياسة ، وتعينه قوة الخُلق واستقامة النفس على أساليب الشطار من ثعالب الناس .

كان أبوه « عماد الدين » يهاجم أمراء المسلمين إخوانه فى غير تردد إذا بدا له أن ذلك يعود بالخير عليه وعلى إمارته ، وكان يمد يده للنصارى فى بيت المقدس أو فى طرابلس أو

فى الرها ، ويحالفهم على أن يبقى لهم على ما وقع فى أيديهم من بلاد المسلمين ثمناً لسكوتهم عنه ، وكان يرجو أن يرث ابنه نور الدين خصاله تلك ، حتى يستطيع الحفاظ على إمارة الموصل من شر يدبره أحد الجيران فى عصر تواترت فيه الشرور .

وكان قد قضى حياته يحاول الاستيلاء على دمشق ، لأنها كانت أوسط إمارات الشام ، من وضع يده عليها هدد حلب وجعل الإمارات الصليبية فى بيت المقدس وطرابلس فى خطر . وكانت دمشق تخشاه ، وتتطلع إلى حليف يحميها من مطامعه ، ولم يكن عرشها ثابتاً ولا أمرها مأموناً ، ولو لم يساعفها الله بثعلب من ثعالب السياسة ، وهو « معين الدين أنار » بعد مقتل صاحبها « شهاب الدين محمود » ، لاستطاع عماد الدين أن يضع يده عليها فى غير كبير مشقة ؛ ولكن « معين الدين أنار » أسرع ومد يده إلى « فُلك » صاحب بيت المقدس ونزل له عن بانياس ، وارتضى أن يدفع له جزية فى نظير ما عسى أن يقدمه له فُلك من المعاونة ، واستطاع بهذا أن يحبط محاولات « زنكى » وأن يرده إلى بلاده فى الموصل وحلب آيساً من الأمل فى توسيع رقعة ممالكه فى بلاد الشام ؛ فاتجهت أنظاره إلى إمارة الرها الصليبية إلى غرب بلاده .

وكان صاحبها « جوسلين » فارساً هماماً ، أجمع المؤرخون على قدرته وفروسيته ، وكان من فرط شعوره بالأمان لا يكاد يقيم فى الرها إلا قليلاً ، وإنما كان معظم مقامه فى تل باشر وكان يقضى الوقت كله متنقلاً من حصن إلى حصن فى دعة وأمان وطلب للتسلية يدعو إلى العجب ، ولم تكن العلائق بينه وبين جيرانه النصارى أمراء طرابلس وأنطاكية على مايرام ، ولم يكن يرجى منهم أن يمدوا له يد المساعدة ساعة الخطر .

وحدث فى سنة ١١٣٧ أن شغلت هاتان الإمارتان بهجوم مفاجىء قام به يوحنا إمبراطور بيزنطة ، فصرف ريموند أمير أنطاكية معظم وقته فى رد هذه الغارة ، وظهر للعيان أن صاحب الرها واجد نفسه وحيداً بلا عون من أحد من إخوانه النصارى إذا دهمه أمر ، فلم يكد عماد الدين يشعر بهذا حتى جمع جنده ، وهاجم الرها هجمة مفاجئة فاستولى على الحصن المنيع بعد حصار قصير (٢٨ نوفمبر سنة ١١٤٤) ، وبهذا أسقط عماد الدين واحدة من الإمارات الصليبية الأربع فى الشام ، وخلص المسلمين من هذا الشجى الذى

كان قد استقر فى حلوقهم ، مهدداً حلب والموصل ، ومبدداً كل أمل فى الوحدة ، فلما وقعت فى يد هذا الصقر المسلم انفتح السبيل أمام أهل الموصل ، واستطاع أن يخطو فى أرض الشام بقدم ثابتة .

وأحست إمارة دمشق الموالية للصليبيين أن ساعتها قد دنت ، ولو لم يمت عماد الدين مقتولاً على يد أحد غلمانه فى الرابع عشر من سبتمبر سنة ١١٤٦ لاستولى عليها ، ولكنه مضى مخلفاً العرش لولديه نور الدين محمود وسيف الدين غازى ، فتقاسما دولة أبيهما : لسيف الدين الموصل وما يليها ، ولنور الدين حلب والرها . فكان على سيف الدين الانصراف إلى حماية أملاكه من جيرانه المسلمين فى الشرق ، وأما نور الدين فقد أراد له الحظ السعيد أن يكون وجهاً لوجه أمام الصليبيين ، أمام العدو المهاجم المحتل . ولم يكن أحب إلى نفسه من عمل جليل كهذا ، فانصرف إليه بكل ما ركبه الله فى نفسه من حمية للدين وصفاء فى العقيدة ، ومازال يغالب ويجاهد حتى خلف للإسلام دولة موحدة قوية فى يدى زعيم عبقرى هو صلاح الدين .

ولو قد كان نور الدين ذئباً من ذئاب الأمراء كغيره من معاصريه ، أو ثعلباً من ثعالب السياسة كأبيه وجاره « معين الدين أنار » ، لما وفق فى إدراك مطالبه البعيدة الجليلة هذا التوفيق السعيد . ذلك أن استقامة خلقه ومعاملته الناس بما تقتضيه المروءة الإسلامية الشرقية العريقة ، قد أوقعتا فى القلوب احترامه وأخجلتا رجاله ، وجعلتاهم لا يكادون يجرؤون على غدر أو تقصير وإن دارت أفكار ذلك بأذهانهم ، بل كان لشخصه من المهابة فى قلوب خصومه النصارى ما أيأسهم من إدراك مطالبهم منه بالحيلة أو بالخيانة ، واضطروا أن يقفوا منه وجهاً لوجه وقفة الشريف للشريف ، وهو أمر لم يعتادوه ولم يستطيعوا عليه صبراً ، وعجزت وسائلهم فى كسب وده بالمال أو بالطاعة المدخولة ، لأن الرجل لم يكن يطلب مالاً ولا طاعة ، وإنما كان يطلب بلاد المسلمين ليردها على المسلمين وقد تراجع خصومه أمامه ، وأسلموا إليه حصونهم واحداً بعد واحد ، وهم يزدادون مع الأيام إعجاباً به واحتراماً له ، حتى لتقرأ مديحه عند أشد خصومه النصارى تعصباً ، فيصفه وليم الصورى بأنه أمير عادل يقظ متدين معين لأبناء جنسه راع لتقاليده :

Princeps justus et providus et secundum gentis suae traditiones religiosus .

وقد حاول من أول الأمر أن ينزع من قلوب من يعاملونه الخوف والشك اللذين يدفعانهم إلى الخداع والغدر ، كان يعرف مثلاً أن فلاناً من أتباعه يدبر عليه ولا يستحى أن يضع يده فى يد أعدائه ، ولو أن غيره مكانه لقبض على هذا التابع وبطش به ، ولكن نور الدين كان يعلم أن دافع هذا التابع إلى الخداع والغدر إنما هو عدم الأمان الذى يشعر به ، ولو أمن لجادت نفسه بأحسن ما فيها ، فكان لا يزال يحاسن القَلِق المتردد ، ويملى له فى أسباب الطمأنينة حتى ينتزع الخوف من نفسه ، ويجعله يشعر أن نور الدين أحنى عليه من والده ، ومن ثم يسلم قلبه له ، ولا يعود يفكر فى خيانة أو غدر .

ولم يكن نور الدين ييأس من أول محاولة مع الناس ، بل كان يحاسن التابع من أتباعه فيصر التابع على الغدر ، فيمضى نور الدين يزيد فى إحسانه ولا يزال به حتى يستل من نفسه كل خوف . وقد كسب بهذا قلوب تابعيه على نحو لم يوفق إليه أمير مسلم فى عصره ، وأصبح يبعث الواحد من رجاله فى أمر من أموره وهو لا يشك فى صدقه وفى استعداده لبذل أقصى ما يستطيعه . بهذا كسب قلب أمير قادر مثل « أسد الدين شيركوه » واحتفظ بود « صلاح الدين » ، ولو عمل كلاهما مع أمير آخر غير نور الدين لوقعت البغضاء بينهما وبينه من أول الأمر ، ولتفرقت الوحدة المرجوة أيدى سبا .

ولست تجد فى تاريخه كله إلا مثلاً نادرة من هذه الفضيلة الغالية التى توقظ الفضيلة النائمة فى قلوب الناس وتنظمهم جميعاً فى صفوف الخير جنداً مخلصين ، ولعل ذلك يأذن لنا فى أن نقول إن الفضيلة إذا تمكنت من النفس كانت أقوى من ذكاء نافذ وتحايل تزول أما الحجب . فلو أن صلاح الدين كان فى مكان نور الدين لما استطاع ما استطاع ، لأن صلاح الدين كان رجل سياسة وكياسة ، ولم يكن الوقت يحتاج للسياسى الكيس ، وإنما للزعيم المخلص ، وللأب الكريم الذى يكسب القلوب ويؤمنها وينظمها فى صف الجهاد عقداً ، وقد استطاع نور الدين ذلك على أجمل صورة وأدعاها إلى الإعجاب ، وخلف قلوب الناس مفتحة للجهاد مشرئبة إليه ، ولم يبق على صلاح الدين إلا أن يقود ؛ وقد قاد وانتهى الأمر بنصر الإسلام والمسلمين .

وكان مركز نور الدين في حلب ـ بين المسلمين إلى شرقه والنصارى إلى غربه ـ دقيقاً يحتاج إلى مهارة كبرى في سياسة الأمور ، وكان قد قرر في نفسه أن يكون صديقاً للمسلمين أبداً ، حرباً على النصارى أبداً . ولم يكن ذلك بالهين الميسور ، لأن المسلمين إلى شرقه لم يكونوا خيراً من النصارى أو آمن جانباً ، بل كان أخوه سيف الدين يبدى من مظاهر العداوة مالا يبقى للحب والمحاسنة سبيلا ، ولم يكن نور الدين ليستطيع أن يمضى في سياسة المحاسنة مغمض العين ، لا يكاد يفطن إلى ما يدبره أخوه إلا إذا عول على بعض الخسارة ، فلم يتردد في أن يكون هو الخاسر في نزاع بينه وبين أخيه ، وكان يعوض ذلك بمضاعفة الهمة في حرب النصارى والكسب منهم ، فكانت مكاسبه من الأعداء تعوض عليه خسائره على يد سفهاء قومه .

ومن دلائل فضله وتوفيقه في تحقيق أمانيه بهذا الفضل وحده سياستُه مع أتابكية دمشق التي كان يدبر أمورها الوزير الماهر « معين الدين أنار » ، فقد قضى عماد الدين زنكي عمره يحاول كسب دمشق بالحرب وبالحيلة فلم يوفق ، لأن « معين الدين » لم يكن في نفسه بالرجل السيىء أو الفاسد الإيمان ، وإنما كان مروعاً يخشى أن يقتله عماد الدين أو يخرب بلده إن هو استسلم له ، ولهذا مضى يكابره ويعارضه ويحالف النصارى عليه خوفاً من أذاه، وبهذا استحال على عماد الدين زنكي أن يستولى على دمشق ـ موسطة بلاد المسلمين ومفتاح سُبُلها ـ واستحال عليه لذلك أن يمضى في توحيد المسلمين إلى الغاية المطلوبة .

فلما أقبل نور الدين استشعر من هلع « معين الدين » ما عطف قلبه عليه ، فمضى يحاسنه ويهدىء من روعه ، بل تزوج ابنته وأصبح الحريص عليه الحانى على مصالحه ، فلم يكد « معين الدين » يطمئن حتى انقلب على النصارى ، وأصبح درعاً من دروع الإسلام بعد أن كان شجى في حلوق المسلمين ، واطمأن أهل دمشق إلى نور الدين وهوت نفوسهم إليه . وبدأت مخاوف معين الدين تظهر من جديد ، إذ خاف أن ينقلب عليه أهل بلده ويغدروا به وينضموا إلى نور الدين ، فأخذ يمد يده إلى صاحب بيت المقدس في السر يريد أن يدخره لوقت تتغير عليه فيه قلوب أهل بلده .

وقد كان نور الدين مستطيعاً أن يهاجم دمشق ويقضى عليها ويستريح من شرها ،

فأبت عليه نفسه الكريمة أن يفعل هذا ، وكره أن يهاجم مسلماً ليغتبط صليبى لم يأت إلا للقضاء على قوة المسلمين ، وكان يعرف بما وهبه الله من ذكاء أن الإفرنج منقلبون يوماً على دمشق ، وأن صلح معين الدين معهم منتهٍ يوماً إلى شر ما تكون عليه العواقب ، وكان يشفق من هذا أشد الإشفاق . ولم تكذب ظنونه ولم يطل به الانتظار ، فما هى إلا شهور حتى أقبلت الحملة الصليبية الثانية ، فإذا أحلاف الأمس أعداء اليوم ينطوون على شر النيات نحو دمشق وأهلها ، وإذا جموعهم تزحف رهيبة وتحصر « معين الدين » حصراً شديداً ، وإذا به يستغيث فلا يجد من ينجده ويقيل عثرته ويقف إلى جانبه موقف الأخ المعين غير نور الدين ! وقد نسى أو تناسى إصراره على الشر والخداع فى لحظة كان ينبغى أن لا تنطوى القلوب فيها إلا على الحب والإخاء .

خف نور الدين لعون دمشق بالمال والرجال ، فثبت معين الدين ومن معه من أهل دمشق فى صفوف الإسلام ثباتاً هزم الصليبيين وردهم على أعقابهم بخسارة ظاهرة ، فكأن نور الدين أدرك بالمحاسنة والود من دمشق مالم يكسبه منها أبوه بالحرب والحيلة ، ولو قد أقبلت هذه الحملة الصليبية فى أيام عماد الدين لانضم إليها معين الدين وسار مع رجالها لمهاجمة حلب والرها ولتعرضت بلاد المسلمين كلها للخطر الشديد ، فأما وقد أقبلت فى أيام نور الدين فقد تغير الأمر كله ونجا الإسلام بفضل نور الدين وفضيلة نفسه .

لقد كان فشل الصليبيين فى الاستيلاء على دمشق سبباً فى ارتداد الحملة الصليبية الثانية وكانت تهدد الإسلام وأهله بخطر شديد ، وكان ارتداد هذه الحملة الصليبية بالفشل هو الحد الفاصل بين الدور الأول والدور الثانى من أدوار هذا الصراع الطويل بين الإسلام والنصرانية على أرض الشام والبلد المقدس ، دور الدفاع والتقهقر والخوف قبل عهد نور الدين ، ودور الهجوم والتقدم والجرأة والثبات فى عهده وبعده . لقد جنى المسلمون على يد نور الدين أول ثمرة من ثمرات التضامن والإخلاص ، وأثبت نور الدين لمن يضع يده فى يده أنه آمن مطمئن كاسب من الاتفاق على كل حال ، فتسارع الناس إليه يحالفونه ويضعون يدهم فى يده .

أما الصليبيون فقد روعوا ، وبدأت ريح الفشل تجرى فى صفوفهم . لقد عاشوا إلى الساعة فى بلاد المسلمين معتمدين على ما أصاب المسلمين من تفرق ، وما كان يخامر

قلوبهم من كراهية بعضهم بعضاً . وقد كان النصارى سعداء كل السعادة بأن يجدوا صاحب دمشق خائفاً مروعاً من صاحب حلب ، وكان ذلك يؤمنهم ويثبت أقدامهم ويفسح مجال الأمل أمامهم ، فأما اليوم فلا عون ولا أمل فى العون . وهذا نور الدين باسط كفه يؤمن المسلمين ويهبهم باليدين ، وهم يلتفون حوله وتهوى إليه قلوبهم ، وهو ماض يوحد قلوبهم وينظم صفوفهم ويعدهم للمعركة الأخيرة الحاسمة لتخليص الوطن الإسلامى الكريم من العدو المهاجم الدخيل . لقد كسب نور الدين بقلبه الكريم للإسلام مالم يكسبه أبوه بسيفه الرهيب .

ثم اتجهت أنظار نور الدين نحو أنطاكية ، ولم تكن بالإمارة الضعيفة ولا الحصن الميسور ولو قد كان نور الدين يبغى الكسب على أى حال لوجه قواته نحو دمشق ، فقد كانت فى كفه لا تكاد تستطيع مقاومة ، ولكنه انصرف عنها ومضى ينازل عدواً خطراً هو رايموند الطولوشى صاحب أنطاكية . وملأت الحماسة قلوب المسلمين ، فمضوا فى جيش نور الدين تكاد قلوبهم تقفز من صدورهم قفزاً ، ولم يكادوا يلتقون مع العدو عند « أناب » من بلاد أنطاكية فى يونيو سنة ١١٤٨ ، حتى كروا على العدو كرة خلعوا بها قلبه وفرقوا قواه بين أسير وقتيل ، حتى رايموند نفسه لم يفلت ، فقتله أسد الدين شيركوه بيده . وكان لذلك رنة فرح كبرى فى قلوب المسلمين إذ أيقنوا أن ساعة أنطاكية قد دنت ، وأن راية الإسلام مرفوعة عن قريب على ربى هذا الإقليم بعد قرابة قرن ، قضاه أهله فى ظلال الأسر والهوان.

وكان نور الدين يشفق على قواده إشفاقاً شديداً ، ويبذل الجهد ليعينهم على أن يصيبوا من مطالب النفس والحياة ما عساهم يطمعون فيه ، لا يكاد يصرفه عن ذلك شعوره بأن هذا التابع أو ذاك يميل إلى شىء من الانفراد بالأمر والسلطان . ومن أمثلة ذلك موقفه حيال قائده أسد الدين شيركوه ، فقد كان أسد الدين قائداً ماهراً واسع المطامع ، وكانت قد بدرت منه أول الأمر بدوات قمينة بأن تبغض نور الدين فيه وتخيفه من مقاصده . وكان أسد الدين كردياً ، وكان الأكراد كثيرين فى جيش نور الدين ، ولم يكن من المأمون أن يترك فيهم هذا الطامح خشية أن يعتز بهم ويجنح إلى العصيان ، ثم إنه واسع المطامع لا يفتأ يتحدث بمطامعه إلى من حوله .

وكان دائم الإلحاح على سيده نور الدين فى ضرورة فتح مصر ، لتكون له كما كانت لعمرو بن العاص ، وكان ظاهراً أنه يسعى فى فتحها لغاية يطويها فى نفسه ، ولم تكن تلك الغاية هى الوثوب على أميره نور الدين والاستقلال بمصر ، وإنما هى الرغبة فى أن يقوم بعمل كبير ينفرد هو بشرفه . فقد ظل إلى الساعة يقوم بدور ثانوى إلى جانب نور الدين ، كان يقيم معه فى عسكره ، وكان هذا يرمى به فى كل معمعة ويرسله فى كل جليلة ، وقد حاز شيركوه من النصر شيئاً كثيراً ، بل لم يُرهب الصليبيين وينزل بهم الهزيمة تلو الهزيمة أحد مثله ، فتاقت نفسه إلى أن يتوج أعماله بفتح جليل يعلو به ذكره ، ويغل عليه غلة كبيرة ، فمضى يقنع نور الدين بأهمية فتح مصر ، ويهونها عليه كما فعل عمرو بن العاص مع عمر ابن الخطاب من قبل .

ولم يكن نور الدين يسوف فى ذلك خوفاً من شيركوه ، بل لأنه كان يرى أن الساعة لم تحن بعد لمثل هذه الخطوة الواسعة ، ثم إن أصحاب مصر كانوا مسلمين ونور الدين لايفكر فى مهاجمة المسلمين . حتى إذا كانت غزوة « إمرى » صاحب بيت المقدس فى سبتمبر سنة ١١٦٣ ، لم يبق عند نور الدين شك فى ضرورة الاستيلاء على مصر لطرد الصليبيين منها ، وللحيلولة دون تسربهم إليها مرة أخرى ، فأذن لشيركوه فى المسير . ولم يكد هذا الأخير يتلقى هذا الأمر حتى خف يقطع المراحل إلى مصر فى إبريل سنة ١١٦٤ ، وأحب نور الدين أن يهون عليه الأمر ، فجمع جنده وقام بغزوة فى شمال بلاد مملكة بيت المقدس ، ليشغل بها « إمرى » عن التعجيل بإرسال قواته إلى مصر .

وبذلك استطاع شيركون أن يتم هذا الفتح بعد جهد كبير وحملات ثلاث ، اشتد فيها الصراع بين المسلمين والنصارى على هذا البلد ، الذى كان الحكم الفاطمى قد هبط به وبأهله إلى حال هى أقرب ما تكون إلى العدم ، حتى كان الفريقان يتطاحنان على أرضه وهو ذاهل لا يكاد يحرك ساكناً . لم يظل نور الدين ساكناً طوال هذه الفترة منتظراً نتيجة هذا الصراع العنيف الذى يدور على ضفاف النيل ، بل مضى يهاجم خصومه الإفرنج واحداً بعد واحد ، لا يكاد يمر شهر حتى تجده على رأس جنده فى ناحية .

وكان من عجائب المقدور أن شيركوه لم يكد يتم هذا الفتح الجليل ، ويقضى على شاور ويستقر فى وزارة العاضد ، حتى أدركه الموت ولما تنقض ثلاثة أشهر على تمام فتحه الجليل

وبلوغه أقصى أمانيه ! عشرون سنة قضاها وهو يحارب فى صفوف المسلمين ، ويقود الغارات ويفتح البلاد دون أن يحظى من ذلك كله بما عساه يعوض عليه بعض ما يلاقيه من جهد ، فلما وصل آخر الأمر إلى ما يريد ، وآن أن يستمتع ببعض الراحة ناداه ربه إلى جواره فغادر هذه الدار الفانية فى الثالث والعشرين من مارس سنة ١١٦٩ . وقد حزن عليه مولاه نور الدين حزناً بالغاً ، وجعل ابن أخيه صلاح الدين مكانه تعويضاً للأسرة عن مصابها فى أميرها الكبير .

وقد توفى أخوه سيف الدين سنة ١١٤٩ ، وترك مملكته فى « سنجار » خالية ، ولو أراد نور الدين لوضع يده عليها ، ولكنه لم يطمع فى هذا الغنم الذى وقع بين يديه . لم يكن كمن عرفنا من الحكام ، ينقض على ما يخلفه إخوته فيختطفه اختطاف النمر الكاسر ، بل ذهب إلى سنجار ورتب أمور الإمارة ثم وهبها لأخيه الأصغر مكان أخيه الراحل ، ونزل « لقطب الدين مودود » هذا عن كل ما اتصل بالفقيد من تراث وعتاد .

* * *

ويتجلى كرم النفس الذى امتاز به نور الدين فى موقفه من صلاح الدين ، فإن مطامع صلاح الدين لم تكن تخفى على أحد من يوم ولايته الوزارة فى مصر بدلاً من أسد الدين شيركوه . وجعل الناس يتحدثون فى مجلسه بالوثوب على نور الدين والاستقلال عنه ، ولو لم يتدخل أبوه نجم الدين أيوب لخرج صلاح الدين على سلطانه وولىّ أمره ، وكان صلاح الدين يتصرف من أول الأمر تصرف المستقل الذى لا ينوى الطاعة ، وقد شجعه على ذلك ما ظهر له من رقة نور الدين وطول صبره وانصرافه إلى منازلة الفرنج . وكان نور الدين يرجو من صلاح الدين معاونته والخروج لحرب النصارى فى كل حين ، لا الانصراف إلى تأثيل ملك وتقرير سلطان ، فكان كلما خرج فى غزوة سأل عن صلاح الدين وانتظر معاونته ، ولكن صلاح الدين كان يتقاعد ادخاراً لقوته ، أو انصرافا منه إلى ما كان يعتبره إذ ذاك أهم وأجدى . فساورت المخاوف قلب نور الدين ، وجعل يلومه ويستحثه ويطالبه با لمال ، على نحو ما كان عمر بن الخطاب يفعل مع عمرو بن العاص حينما خامرته فى أمره الريب .

وتسامع نور الدين بما كان آل أيوب يدبرونه فى مصر ، وعرف أنهم بعثوا من يكشف لهم

بلاد النوبة حتى يلجأوا إليها إذا وقعت الواقعة بينهم وبين نور الدين ، وعرف أن بلاد النوبة لم تعجبهم ، وأنهم بعثوا بعثا آخر إلى اليمن وبرقة لهذا الغرض ، فأدركه من ذلك خوف مقيم مقعد . وقد كان مستطيعاً السير إلى مصر ونزع صلاح الدين عنها ، ولم يكن صلاح الدين ليستطيع مقاومته لأن أمره كان ناشئاً ، ولأن أجناده كانوا أجناد نور الدين على أى حال ، وقد أطال نور الدين صبره وأملى لصلاح الدين وآله ، جريا فى ذلك على أسلوبه مع غيره من المسلمين ، وكان مع ذلك الخوف كله لا يزال يوقر صلاح الدين ويرسل له الخلع حتى يؤمنه ، ويصرف الخوف عن نفسه ، كما فعل « بمعين الدين أنار » وزير دمشق، وظل الأمر بينهما على ذلك حتى مات نور الدين .

* * *

كان نور الدين يحلم بالدولة الإسلامية الواحدة ، وكان يرجو أن يحققها الله على يديه ، وكان شديد الشعور بما تتعرض له البلاد الإسلامية من الأخطار إذا ظل الصليبيون مقيمين فيها تصل إليهم الأمداد بين الحين والحين ، ويوسعون أملاكهم فى كل يوم شيئاً . ولو قد كانت جهته توسيع ملكه على أى نحو لترك الصليبيين وشأنهم كغيره من أمراء المسلمين فى عصره ، ولو انصرف إلى صغار أمراء المسلمين وشغل نفسه بهم لكسب كثيرًا بالاستيلاء على ما بيدهم من بلاد ، وقد كانت قوى بعضهم لا تزيد على مائة فارس ، وكانت حصونهم هينة يسيرة تفتح له أبوابها إذا مر بها ، فلا يغدر بأحد من أهلها ولا يطمع فيما بيده . بل كان يجمع أجناده ويتوجه بقوته قاصدًا هذه الإمارات الصليبية ، ولا يزال يدأب فى حربها حتى تستسلم وتعود إلى راية الإسلام .

لقد رأينا مصانعته « لمعين الدين أنار » صاحب دمشق وصبره على صلاح الدين ، ورأينا كذلك عنفه فى الحرب وإلحاحه على أنطاكية بالحرب ، لا يبغى من وراء ذلك إلا خير المسلمين وجمعهم إلى لواء النصر من جديد ، وقد ورث عن أبيه عماد الدين إمارة حلب ، وهى إمارة صغيرة يتهددها الصليبيون من الغرب ، فمازال حتى أمنها من ناحية أمراء المسلمين فى الشرق وأمن حدوده الشمالية ، ثم انصرف يناجز أنطاكية واستولى على معظم بلادها ، وبسط سلطانه على دمشق ، ثم استخلص مصر من الفاطميين ، وبهذا

أصبحت أملاكه تمتد من الموصل إلى مصر قطعة واحدة ، ففصل بذلك إمارة بيت المقدس الصليبية عن أنطاكية وطرابلس ، وأصبح مصير الصليبيين فى الشام رهناً بضربة توجه إلى بيت المقدس وتقضى على الدولة اللاتينية فيها ، ولا يبقى لهم بعدها إلا شريط ضيق من الأرض على ساحل الشام . ولم يلجأ نور الدين فى تكوين هذه الوحدة إلى غدر أو خديعة ، ولم يهبط بخلقه ودينه إلى ماكان يهبط إليه أنداده ومعاصروه من سلاطين زمانه ، إنما ظل طوال أيامه مسلماً فاضلاً شريفاً لا يكاد الإنسان يستدرك عليه شيئاً يمس الخلق أو الإيمان.

وكان صلاح الدين تلميذه : ورث عنه فكرة الوحدة الإسلامية ، فحافظ عليها مااستطاع ، وأخذ عنه فكرة القضاء على إمارة بيت المقدس الصليبية فأنفذها بعد موت نور الدين بثلاث سنوات فقط ، ومن ثـم فنصر المسلمين فى حطين وما أعقب ذلك من عز للإسلام وأهله يرجع معظم فضله إلى هذا الرجل الكريم نور الدين محمود .

توفى نور الدين عن ست وخمسين سنة فى دمشق فى مايو سنة ١١٧٤ ، فى لحظة اشتدت فيها مخاوفه من ناحية صلاح الدين ، حتى ليزعم المؤرخون أنه كان يستعد لحربه ؛ توفى قبل أن يرفع سيفاً فى وجه تلميذه وتابعه صلاح الدين العظيم ، فكأنما اصطفاه الله إلى جواره فى ذروة مجده ، وفى لحظة تطلع لتسلم الزعامة منه فيها زعيم آخر ذخره الله لإتمام الرسالة الكبرى : تحرير بلاد المسلمين وجمع المؤمنين إلى لواء واحد عزيز منصور .

أبطال دمياط والمنصورة

ليتك صحبتنى أيها القارىء ، فاستمعت معى إلى المقريزى يروى حديث بطولة مصر وأهلها ! ليتك شاركتنى هذا المتاع الطيب الذى يظفر به المصرى ، حينما يقرأ هذه الصحائف الممتعة من « السلوك لمعرفة دول الملوك » ! إذن لسمعت حديثا يثير فى نفسك صنوفا من العواطف تذكى فى فؤادك الفخر بهذا البلد ! إذن لرأيت بعينيك كيف كان أجدادك وطنيين حقا ، مسلمين حقا ، لا يرضون أن يطأ أرضهم مهاجم ، ولا يطيقون أن يعدو على بلاد المسلمين خصم يريد بهم الشر أو الأذى ، إنما دون العدو وحياض المسلمين صراع يفيض ثباتا ، واعتزاز يفيض إيمانا ، وحرب هى نزال أبطال ، وضرب لايثبت له غير الرجال !

ذلك أمر لا ينبغى أن يرقى إلى نفسك فى شأنه ظل من الريبة ، وما أحب أن تتبع فيه مذهب الضعفاء الذين يأخذون تاريخ بلادهم عن الأجانب الذين حدثتك بموقف بعضهم من تاريخ مصر فى قصة واقعة رفح ، أو بعض المحدثين الذين ينظرون نظرة عاجلة فى كتاب مختصر ، ثم يقولون لك : تاريخ مصر فى العصور الوسطى ؟ إنما هو قصة طويلة محزونة لا فخر فيها لمصرى ولا كرامة ! إنما الكرامة لتركى كأحمد بن طولون ، أو نوبى مثل كافور ، أو أرمنى كبدر الجمالى ، أو كردى مثل صلاح الدين ! .

هذا القول وأمثاله هو بعض ما ابتلينا به فى دراسة تاريخنا ، كأنما كان هؤلاء الذين ذكرتُ أغرابا يعتبرون أنفسهم أغرابا كما يعتبر الفرنسى مثلا نفسه فى مصر غريبا . والواقع ليس كذلك ، لأن لفظ « أجنبى » هذا لفظ حديث بمعناه الذى نفهمه به نحن اليوم ، وقد كان المسلم فى أيام ابن طولون أو فى أيام الناصر بن قلاوون ، يعتبر نفسه فى بلده مهما

تقلب فى بلاد المسلمين ، وكان الشامى لا ينظر إلى المسلم المقبل من مصر نظرته إلى غريب طارىء وإنما إلى مسلم مثله يلتمس العيش فى دار الإسلام الواسعة .

وطاعة المصريين لعبقرى مثل صلاح الدين لم يكن يشوبها شعور الاشمئزاز الذى شعر به سلائلهم حينما أرادت لهم صروف الأيام أن يخضعوا لنابليون ، لأن أسلافنا فى تلك العصور كانوا على أن صلاح الدين رجل مسلم تنبغى طاعته ما أقام على العدل ، ونابليون رجل نصرانى ينبغى خلافه ولو كان أعدل العادلين ! ولم نكن نحن بدْعا فى هذا الفهم ، بل شاركَنا فيه أهل الدنيا أجمعين ، فقد كان ملوك الإنجليز من النور مندين معتبَرين من أتباع ملوك فرنسا ، وكان الإيطاليون من رعايا أباطرة الجرمان لا يعرف بعضهم إيطاليا إلا فاتحاً غازيا مؤدِّبا ، ومثل ذلك كثير .

ولا يجد مؤرخو هذه البلاد على أنفسهم أو على بلادهم فى ذلك ضيراً ، فإنما الرجل بالبلد الذى نبغ فيه وأعانه أهله ، فليس وليم الفاتح فرنسيا بل إنجليزيا وإن ظل يتكلم الفرنسية طول حياته ، وليس نابليون إيطاليا وإن ظل لا يجيد الفرنسية طوال حياته ، وليس فون مولتكه دانيمركيا وإن ظل كذلك حتى العشرين من عمره . كذلك أحمد بن طولون : كان مصريا وإن كان أصله تركياً ، وصلاح الدين كان مصريا وإن كان كردى المولد ، وهكذا ينبغى أن نفهم الأمور هذا الفهم وإلا أسأنا فهم تاريخنا ، وفاتنا من جماله الشىء الكثير .

هذا ، ومهما تكن حجة هؤلاء المكابرين فى إنكار ما كان لأجدادنا من نصيب فى مجد مصر الفاطمية أو الأيوبية أو المملوكية ، فإنك واجد عند القراءة الذكية لتاريخ هذه العصور أن المصريين لم يكونوا أقل ممن نسميهم اليوم « أجانب » نصيباً فى بناء صرح الأيوبية مثلا ، فقد كان منا ساسة الدولة وعلماؤها وكتابها وشعراؤها ومهندسوها ، وكان منا جنود بواسل قصموا ظهر العدى .

وعسى من يسأل : فلماذا لم يندرجوا فى سلك الجيش ويرتقوا إلى مراتب القيادة ؟ والجواب عن ذلك هين ، فقد كانت الجندية إذ ذاك حرفة لها ناسها لا يعرفون فى الحياة سواها . وكان الجنود عبيد الأمير يشتريهم بماله ويملك رقابهم لأنهم يعيشون من فضله

وبإحسانه وطوع بنانه ، ولم يكن المصريون من أهل الجندية المحترفين ، لأنهم مدنيون بطبعهم وبظروف الحياة في بلدهم ، ولم يكونوا عبيدا يشترون فى أسواق الجند ، ويعيشون «ممـاليك» لواحد من الناس . وكذلك كان أهل الشام وأهل العراق وغيرهم من أهل البلاد المستقرة العريقة فى الحضارة ، لهذا أوصد باب الجندية المنتظمة فى وجوههم ، ولم يبق لهم إلا باب التطوع الحر ، فكانوا فى جيوش بلادهم متطوعين . ولهذا أهمل المؤرخون معظم أعمالهم، لأن المؤرخين كانوا يكتبون للسلاطين وأمرائهم وأصحاب العروش ، ولم يكن يعنيهم أن يطيلوا الحديث عن « متطوعة » أدت واجبها ، واستشهدت فى الميدان ، أوكتبت لها السلامة ، فعادت بعد المعارك ، واندرجت فى تيار حياتها الوادعة المد ، وغابت عن الأنظار .

وأنا أنقل لك الساعة حديثاً يؤيد ما أقول ، فاقرأه ، عساك تمضى فى دراسة تاريخ بلادك على هديه ، فأنت مفيد من ذلك فهما لتاريخ مصر العزيزة جديدا .

* * *

أهل القرن الثالث عشر الميلادى ، ومضت سنوات تجرى سراعا يتلو بعضها بعضاً ، وأقام الصليبيون فى بلاد الشرق ، يدافعون عما بقى لهم من الأملاك على ساحل الشام ، يُمنَون بالخيبة تتلوها الخيبة ، وبالهزيمة فى إثرها الهزيمة فى ميادين الشام بمصر . وقد كانوا - حينما أقبلوا - يحسبون الشرق كله فريسة هينة ، يصيبونها فى جرية فرس وهزة رمح ثم يعودون ! ولقد كان رهبانهم وقادتهم قد حدثوهم - يوم نهضوا لهذه الحرب فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى — أنها لن تدوم إلا فترة قصيرة من الزمان ، وأن المسلمين لن يستطيعوا ثباتا ، ولن يلبثوا أن يسلموا عن خوف ويتوبوا عن مغفرة ، فأقبلوا سراعا يغريهم الظفر الهين باحتمال مشقة السفر الطويل .

ولكن أقدامهم لم تكد تطأ أرض الشام حتى رأوا أمراً عجبا ، رأوا جند المسلمين الذين كانوا يحسبوهم متفرقين ممزقين يتقاربون ويتضامون ، فلم تكد الشراذم الممزقة تتنسم ريح الأجنبى حتى اجتمعت تحت لواء واحد ، يرتفع فى العراق خفاقاً تهزه سواعد أمراء الموصل، ثم ينتقل إلى الشام منصوراً فوق هامات أمراء حلب ، ثم يمضى إلى مصر مظفراً تُعليه

ذراع صلاح الدين . واجتمع المسلمون يدا واحدة وقلباً واحداً ، صدموا العدو صدمة زعزعت فؤاده فى ميدان حطين سنة١١٨٧ ، وتضاءلت أحلام الصلبيين ، وتسارعوا إلى سواحل الشام يعتصمون فيما بقى لهم فيها من معاقل ، ويتحصنون فيما ترك لهم صلاح الدين بعد أن قصهم ظهورهم فى هذه الواقعة الخالدة التى هى منعرجٌ تحول عنده سير التاريخ .

فإذا بلغ اليأس بهم هذا المبلغ فقد جرى بذهنهم أن ينفضوا أيديهم من الشام ، وأن يوجهوا ضرباتهم نحو مصر ، وخَيّل لهم النظر القيصر أنها أسهل فتحا وأقرب موردا ، فليس فيها جبل ولا تل يتحصن فيه المسلمون ، وإنما هى سهل مبسوط تسيل فيه الجنود سيلا ، وماهى إلا أن تطأ قدمٌ شاطىء دمياط حتى تخطوا الأخرى فى القاهرة ! وبهذا يُقضى على المقاومة الإسلامية فى قلبها ، ولا يعود سلاطين مصر ولا أحد من أهلها يناجزهم هذه المناجزة العنيدة التى أصابهم منها فى الشام شر كثير .

هكذا كان بعضهم يناجى بعضا وهم فى طريقهم إلى دمياط فى الحملة التى قادها جاندى بريين سنة ١٢١٩ ، وعُرفت بالحرب الصليبية الخامسة ، وطرقوا أبواب مصر على حين غرة من ناحية دمياط ، فما شعر أهل الناحية إلا وهؤلاء الطُرّاق يجتاحونهم اجتياحا . ولم يكن عندهم جند ولا حامية ، فعظم بلاء الفرنج فيهم ، ولكنهم تسارعوا فأغلقوا أبواب دمياط وتحصنوا خلف أسوار مدينتهم ، وأخذوا يناجزون العدو ريثما تأتيهم الإمدادات . «وأنزل الله عليهم الصبر ، فثبتوا مع قلة الأقوات عندهم وشدة غلاء الأسعار »[١] ، وزُلْزل سلطان مصر الكامل ناصر الدين بن محمد لهذا الخبر أول الأمر ، وبدا له أن يغادر مصر ليستعد لحربهم فى الشام ، ولكن ثبات أهل دمياط ثبّت روعه وأنسأ له فى مجال الأمل فمضى بمن وَجَد من جنده نحو دمياط ، وعسكر عند أشمون . وتلاحقت به العساكر وأقبل إليه أخوه « المعظم عيسى » صاحب دمشق فاشتد به ساعده .

(١) المقريزى: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك (طبعة الدكتور محمد مصطفى زيادة جـ١، ص١٩٨).

واشتدت نكاية الفرنج بأهل دمياط ، ولكنهم استبسلوا وبدت عليهم من النجدة مخايل تذكرنا باستبسال الإسبرطيين عند « ترمويل » . ظهر فيهم فتى من أهل القاهرة حديدالقلب صادق الإيمان يسمى « شمايل » ، كان يخاطر بنفسه ويسبح فى النيل ومراكبُ الفرنج به محيطة ، وشوانيهم يغص بها ماؤه ، ولكنه جعل يسبح حول السفن وتحتها حتى يصل إلى المدينة ، فيأخذ رسائل أهلها ويعود سابحاً من حيث أتى ، ورماة الفرنج تتبعة بالسهام ، ومحاربوهم يرمونه بالحراب ، وهو يتهارب كسمكة فى الماء حتى يخلص من منطقتهم ، ويفضى إلى حيث أسطول المسلمين عند أشموم ! ففكر ـ وفقك الله ـ فى بطولة فتى كهذا ، يكاد يعدل بها أبدى من النجدة والصبر ما أبداه ليونيداس ! ولو كان إغريقياً لعبرت أخبار نجدته القرون على أفواه الشعراء والمنشدين ، ولكن ما الحيلة وشعراؤنا لاتتوقد عبقريتهم إلا فى خد أسيل أو ذهب يسيل ؟ .

وبينما أهل مصر يجالدون عن حريتهم هذه المجالدة التى تروع النفس ، كان أصحابنا أمراء المملكة يكيدون لسطانهم الكامل ! يحاولون انتهاز الفرصة لإزالته عن عرشه ، غير حاسبين للخطر المحدق ببلادهم حساباً ، غير مفكرين فى هذا البلاء الذى يقاسيه أهل دمياط ! وربما صح ذلك أن يتخذ مثلا للمقارنة بين هؤلاء « الأجانب » الذين يُنسب إليهم كل فضل فى تاريخ مصر ، وبين أهل مصر الوادعين الذين يود الرواة لو لم ينسبوا إليهم من الفضل فتيلا .

واستمر أهل دمياط ومن معهم من الجند القليل يقاتلون العدو الدؤوب ، وينتظرون المدد من الملك الكامل ، ولكن الملك الكامل كان فى شغل بمؤامرات الأمراء عليه ، حتى كاد أن يترك نجاة من القتل ! واشتد قتال الفرنج ، وعظمت نكايتهم فى أهل دمياط ، وكان فيها نحو العشرين ألف مقاتل ، « فأهلكتهم الأمراض وغلت عندهم الأسعار حتى بيعت البيضة الواحدة من بيض الدجاج بعدة دنانير ، وامتلأت الطرقات من الأموات ، وعدمت الأقوات ، وصار السُّكَّر فى عزة الياقوت ، وفُقدت اللحوم ، فلم يُقْدَر عليها بوجه ، وآلت الحال بالناس إلى أن لم يبق عندهم غير شىء يسير من القمح والشعير فقط . فتسور الفرنج السور ، وملكوا منه البلد ، يوم الثلاثاء لخمس بقين من شعبان سنة تسع وستمائة ، فكانت

مدة الحصار ستة عشر شهراً واثنين وعشرين يوماً ، وعندما أخذوا دمياط وضعوا السيف فى الناس ، فلم يعرف عدد من قتل لكثرتهم ... » [1] .

وريع الكامل لهول النازلة ، ونادى أهل مصر أن يخفوا لعونه وإنقاذ بلادهم ، «واجتمع الناس ، من أهل القاهرة ومصر وسائر النواحى ، ما بين أسوان إلى القاهرة » حتى صاروا جيشاً حافلا من المتطوعة ، لا يطلبون شيئاً غير نجاة بلادهم من يد الغالب المعتدى . واعتز الكامل بهم ، فتقدم على حذر حتى أدرك « المنزلة » التى عرفت فيما بعد بالمنصورة ، وتقدم الفرنج حتى لم يبق بينهم وبين المسلمين إلا ترعة تعرف ببحر أشموم ، ولاحظ بعض المتطوعة من أهل مصر تخاذلَ جند السلطان المرتزقين ، الذين كانوا يتحدثون فى إخراجه من البلاد وطمعوا فى أمره واستخفوا به ! ولو لم يكن أهل مصر فى الجيش لفعلوا ذلك وكسروا ظهر الإسلام ، ولكن الكامل استطاع الثبات بفعل هؤلاء المتطوعة حتى وصلته إمدادات المخلصين من أمرائه فى الشام .

وأخذ المسلمون يهاجمون الأعداء ويتخطفونهم حتى بانت للنصارى طوالع الهزيمة ، فأخذوا يفاوضون فى الصلح رجاء النجاة ، ثم أتتهم النجدات من فرنج الشام ، فقويت قلوبهم وعاودوا الهجوم ، واشتد القتال بين الفريقين براً وبحراً ، « وقد اجتمع من الفرنج والمسلمين مالا يعلم عددهم إلا اللّه ، وكانت العامة تكُر على الفرنج أكثر مما يكر عليهم العسكر ... » ،وتلك شهادة عابرة تؤيد لك ما قلناه من جهد أبناء مصر البررة فى الدفاع عنها يوم سنحت لهم الفرصة .

وكان جند السلطان المرتزقون مترددين قلقين ، لا يكادون يَكُرُّون كرة إلا ارتدوا مرات ، فظل الكامل مضطربا النفس متخوفاً على نفسه ، حتى مال إلى مصالحة الفرنج على أن يتركوا دمياط فى مقابل كل ما فتحه السلطان صلاح الدين من بلاد الساحل فى الشام ! وكان من الممكن أن يتم هذا الصلح المشئوم لولا أن نفراً من أهل مصر بدا لهم أن يستعينوا بماء النيل على العدو المهاجم ، وكان الأوان أوان الفيضان ، والماء يضطرب بين جسور الترع اضطراباً ، فتقدم المصريون ينقبون الجسور من ناحية الفرنج ، فما كادوا يحدثون

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك (طبعة الدكتور محمد مصطفى زيادة ، جـ١ ، ص٢٠٦).

بها بعض الثغرات حتى اندفع الماء فيها وجرف الجسور ، وانساح فى البقعة التى أقام فيها الفرنج ، وكانت لساناً من الأرض محصوراً بين فرع دمياط ومخرج ترعة بحر أشموم ، فلم يلبث الفرنج أن وجدوا الماء يغمرهم ويطغى عليهم ، فأصابهم من ذلك ذعر ، وشاع الاضطراب فى معسكرهم ، واكتسح الماء خيامهم وآلات حربهم . ودهش السلطان وأصحابه وهم ينظرون إلى ذلك وقويت قلوبهم ، فتقدموا يجهزون على عدو قصم المصريون ظهره بالقوة تارة وبالذكاء تارة أخرى ، واشتد الحال على الصليبيين ، فلم يجدوا مفراً من الانسحاب من أرض مصر بما بقى فيهم من رمق ، تاركين دمياط من غير عِوَض ، وكان السلطان وشيكاً أن يعطيهم فيها كل ما كسبه جده العظيم صلاح الدين ؛ وانعقد بين المسلمين والفرنج صلح مداه ثمان سنوات .

* * *

وبعد ذلك بست وثلاثين سنة ...

كان على عرش مصر السلطان نجم الدين الصالح أيوب ، وكان رجلاً شهماً قادراً ، ولكن قواه كانت مفرقة لا يكاد يلم شعثها لاضطراد وثوب أمرائه ونوابه فى الشام به ، وكان أشدهم عليه أمير أيوبى هو الصالح إسماعيل صاحب بعلبك . وقد اشتد أذى الصالح إسماعيل هذا بالصالح أيوب ، حتى لقد حالف الفرنجة وأعطاهم بيت المقدس وطبرية وعسقلان ، ووعدهم بإعطائهم جزءاً من مصر إذا هم أعانوه على الصالح أيوب . فاشتغل قلب هذا الأخير بأمر خصمه العنيد ، واشتدت به علة كانت تلح عليه ، حتى لقد كان الناس ينقلونه فى المحفات ، وتناوبته الهموم ، وأقام على القلق والخوف ، ينتظر ضربة من الفرنج تنزل به فى أرض مصر وهى قلب بلاده .

ولم يكذب ظنه ، فقد طرق الفرنج دمياط مبكرين فى صباح التاسع من صفر سنة ٦٤٧ فى جموع عظيمة لا تحصى كثرة ، يقودها ملك فرنسا لويس التاسع المعروف بالتقى ، والذى يسميه رواة المسلمين ريد افرانس (روى [١] دفرانس = ملك فرنسا) وكان من فرط الثقة فى

(١) هكذا كانت تنطق كلمة « روا » فى فرنسية العصور الوسطى .

نفسه وفى فرسانه لا يكاد يتصور إلا أن سلطان مصر الصالح أيوب مسرع إليه تائباً ضارعاً، وتقدم حتى عسكر خلف أسوار دمياط . وكانت بالمدينة حامية من عساكر السلطان ، يقودها أمير يسمى فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، فخاف على نفسه ، ولم يكد الليل يرخى سدوله حتى اتخذ جملاً ، وهرب بمن معه من الجند ، فريع أهل البلد لهول ما رأوا ، وركبهم الخوف . ولو تُركوا لأنفسهم لاستبسلوا كما فعلوا فى المرة الماضية ، ولكن عسكر السلطان المرتزقين تخونوهم هذه المرة ـ فخرجوا ـ أى أهل دمياط ـ خلف العسكر على وجوههم حفاة عراة جياعاً ، « حيارى بمن معهم من الأطفال والنساء ، وساروا إلى القاهرة ، فنهبهم الناس فى الطريق .. » . هكذا فعل الجند المرتزقون الذين ينسب إليهم كل فضل فى حروب الصليبيين ، وفى ذلك عبرة لمن يريد أن يستبطن أسرار التاريخ ويقرأ بين السطور .

ودخل الفرنج المدينة ، فإذا هى خلاء قواء من أهلها الأبطال ، فلم يصدقوا أعينهم ، وظنوا أن فى الأمر مكيدة ، فتريثوا قبل أن يجرؤوا على ولوج العرين الذى خلا من الأسود .

وعسكر الصالح أيوب فى المنزلة التى عرفت فيما بعد بالمنصورة ، وأخذ يتحصن للقاء العدو فيها ، « وقدمت الشوانى المصرية بالعدد الكاملة والرجالة ، وجاءت الغزاة والرجال من عوام الناس الذين يريدون الجهاد من كل النواحى ، ووصلت عربان كثيرة جداً ، وأخذوا فى الغارة على الفرنج ومناوشتهم ... » بلى .. فى هذه اللحظة التى استبان للسلطان فيها عجز جنده الرسمى ، وبدرت منهم الخيانة فى دمياط ، حتى قال الصالح يخاطب بعضهم : « أما قدرتم تقفون ساعة بين يدى الفرنج ؟! » ، فى هذه اللحظة أقبل أهل مصر ممن يسميهم المقريزى « عوام الناس » ، يتدافعون للذياد عن حياض بلادهم ، تدفعهم هذه الحمية العريقة فى قلوب أهل هذا الوادى العزيز ، وأرادت المقادير أن يموت السلطان الصالح أيوب فى هذه اللحظة الرهيبة من تاريخ البلاد ، مات بعد آلام طويلة تحملها فى شجاعة ، وكانت لوناً من الروماتزم ، كان ينتابه حتى ليقعده عن الحركة ، فلما استجاب لنداء ربه والحال كما رأيت ، رأى المخلصون من أهل بيته أن كتمان الخبر أحجى وكان أعظم ما يخافون هو انقلاب أمراء البيت الأيوبى ، وانضمامهم إلى عدو مصر الملك

الصالح إسماعيل فى الشام ، ومحاولتهم الفوز من تركة الصالح أيوب بأى نصيب ؛ ولو قد حدث هذا لتفرقت البلاد بدداً ، ولاغتالها العدو الجاثم أمامها يلتمس الغِرة ويتحسس الثغرة ، فكان من حظ البلاد أن وُجدت فى القصر السلطانى سيدة فى كمال « شجرة الدر » واكتمال حجاها ، استعانت برجلين من خاصة المِلك الصالح أيوب هما : فخر الدين بن الشيخ ومُحْسِن الطواشى ، تكتَّم ثلاثتهم الخبر عن الناس ، وصارت مكاتبات الدولة تدخل القصر وتخرج موقعة كأن السلطان حى قائم ، وأنفذت « شجرة الدر » الرسل إلى ابنها توران شاه ، وكان أبوه قد ولاه حصن « كيفا » فى الموصل فأقام فيه .

واتصل خبر موت السلطان بالعدو فى دمياط رغم كل هذا الحذر ، فما هو إلا أن ترددت الألسن بالخبر ، حتى تحركت الأقدام للمسير حرصاً على انتهاز الفرصة المواتية ، وتحركت أساطيلهم وسارت فى النيل بحذائهم حتى أدركوا « فارس كور » ، ولم يطيلوا الإقامة بها ، وإنما عجلوا السير نحو القاهرة . وتواردت الأخبار بذلك ، فاضطرب الناس وكتب أهل المعسكر كتاباً يستنفرون فيه أهل مصر للجهاد العام ، وقرىء الكتاب فى القاهرة فارتجت ، « لكثرة انزعاج الناس وحركتهم للمسير ، فخرج من البلاد والنواحى لجهاد الفرنج عالم عظيم ... » .

ووصل الفرنج المنصورة فى أول رمضان سنة ٦٤٧ ، وعسكروا عند شارمساح ، ثم تقدموا إلى البَرَمون ، ولم يعد بينهم وبين المسلمين إلا ترعة بحر أشموم طناح ، ويبدو أن جيش المسلمين النظامى كان قليلاً ، لأن موت السلطان هاض جناحه ، وفرق عنه الكثير من رجاله ، ولكن المتطوعة من أهل مصر ممن يسميهم المقريزى « العامة » كانت أثبت ماتكون جناباً ، حتى ليذكر هذا الراوية : « أنه ما من يوم إلا ويُقتل من الفرنج ويؤسر ، وقد لقوا من عامة المسلمين نكاية عظيمة ، وتخطفوا منهم وقتلوا كثيراً ، وكانوا إذا شعروا بالفرنج ألقوا أنفسهم فى الماء ، وسبحوا إلى أن يصيروا فى بر المسلمين ، وكانوا يتحيلون فى خطفهم بكل حيلة ، حتى أن شخصاً أخذ بطيخة أدخل فيها رأسه ، وغطس فى الماء إلى أن قرب من الفرنج ، فظنوه بطيخة ، فما هو إلا أن نزل أحدهم فى الماء ليتناولها ، إذ اختطفه المسلم وعام حتى قدم به إلى المسلمين » .

واستمر الأمر على ذلك أياماً ، والمسلمون فى نصر والفرنج محصورون فى لسان الأرض الضيق الواقع بين مخرج ترعة أشموم وفرع دمياط ، وكت سفنهم فى فرع دمياط خلفهم تحمل المؤونة ، وكانوا يتلمسون مخاضة فى الماء يعبرون عليها دون أن ينالهم المسلمون بأذى كبير أثناء العبور . وساق لهم الشيطان من دلهم على مخاضة فى بحر أشموم ، فعجلوا بابتدارها فى ظلام الليل ، ولم يصبح الصبح حتى وجدهم المسلمون معهم يخالطونهم ، فسرَى رعب عظيم فى المعسكر ، وقُتل الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ كبير أمراء المسلمين ، وتقدم لويس التاسع يقود جنده وفرسانه فى الهجوم الأخير على المنصورة ، وفيها معسكر المسلمين . وكان اضطراب الناس عظيماً من هول المفاجأة ،ونفذ بعض فرسان الفرنج إلى البلد ، ودار القتال فى شوارعه ، ولم تلبث بقية الفرنج أن أقبلت ، واشتد الضغط على الشرذمة القليلة التى بقيت فى المنصورة من عسكر المسلمين ، وكادت الكسرة تحل بهم، لولا نجدة نفر قليل من جند المسلمين كان يقودهم مملوك يافع هو ركن الدين بيبرس البندقدارى ، الذى سيصل إلى سلطنة مصر بعد ذلك بسنوات ، قاد فرقته بما عرف فيه من النخوة والهمة ، ومازال بالفرنج حتى كسرهم وردهم إلى منزلتهم فى جديلة إلى شمال المنصورة ، فأمِنَ المسلمون بعد خوف ، وقد كادت الدائرة أن تدور عليهم .

وكانت الميرة تأتى للفرنج من دمياط فى مراكب تسير فى النيل ، فخطر للمصريين أن يهاجموا هذه المراكب ، حتى يقطعوا عن العدو المدد الذى يشتد به ساعده ، فجعلوا دأبهم ترصد هذه المراكب على مراحل الطريق والإيقاع بها وإغراقها أو الاستيلاء عليها . فلم يلبث الفرنج أن أحسوا أنهم محصورون بين جند المسلمين من أمام وهؤلاء المصريين الذين يهاجمونهم ويتخطفون سفنهم من خلف ، فلم يلبث مركزهم أن تحرج ، وأحسوا أن مصيرهم إلى بوار إذا هم لم يعجلوا بالانسحاب . وكان معظم القائمين بهذا الهجوم الخلفى من أبناء مصر وأهل ريفها وملاَّحى المنزلة ودمياط ، وهم ملاحون مهرة يحسنون الحرب فى الماء ، ويعرفون كيف يهاجمون سفن الأعداء . ولم يكن للسلطان جندٌ بين المنصورة ودمياط ولم يكن فى جنده ملاحون يحسنون هذا النوع من حرب الماء ، ولو لم يقم هؤلاء المتطوعون المصريون المجهولون بهذا العمل لما انهزم الفرنج ، ولما حدث لهم ما حدث ، فكأنهم فى الواقع أصحاب النصيب الأوفى من فخر هذا النصر المجيد .

ولم يقتصر جهدهم على هذا الجهاد الضعيف ، بل كانوا فى صفوف العسكر يحاربون بما ملكت يمينهم ، لأن السلطان كان لا يفرق السلاح من خزائن الدولة إلا على الجند المأجورين المحترفين ، وقد اعترف السلطان بفضلهم فى بيانه الذى أذاعه بعد النصر يقول فيه : « ولما آن يوم الاثنين مستهل السنة المباركة ، أتم الله على الإسلام بركتها ، وبذلنا الأموال وفرقنا السلاح ، وجمعنا العربان والمتطوعة وخلقاً لا يعلمهم إلا الله ، فجاءوا من كل فج عميق ومكان سحيق .. » .

وأخذ الريد افرانس لويس التاسع ومعظم من كان معه من كبار الجند أسرى ، وسجنوا فى دار كان ينزلها القاضى فخر الدين إبراهيم بن لقمان فى المنصورة ، وظلوا هناك حتى دفعوا فدية كبيرة ، وبارحوا أرض مصر مع من بقى من جندهم على أسوأ حال ..

* * *

تلك قصة الصليبيين فى مصر ، تنبئك تفاصيلها عما أبدى أهل بلدنا من كريم التضحية فى سبيل سلامة الوطن العزيز ، وقد كانوا كما رأيت عُزلاً لا يملك أحدهم من عدة الحرب إلا ما يستطيع أن يشتريه بماله . وقد كان جند السلطان المأجورون فى وفرة من السلاح ، ومع هذا فقد رأيت ترددهم وتهاربهم ، واختلافهم على مولاهم فى لحظات الحرج والخطر ، ورأيت خوف السلطان منهم وغضبه عليهم وإنكاره لجبنهم وفرارهم من دمياط تاركين البلد للعدو المهاجم دون قتال ، فقارن ذلك بثبات الأبطال من أهل هذا البلد المصرى الكريم ، وصبرهم على الحصار سنة وأربعة شهور ، وتفانيهم فى محاربة الفرنج وتخطفهم ، وجند السلطان من خلفهم يرقب الأمور بعين المعجب الدهش ! وتأمل سعة حيلتهم فى فتح جسور الماء ، وبعد نظرهم فى مهاجمة سفن العدو من خلف ! .

اذكر هذا كله ، واحن الرأس إجلالاً لهؤلاء الجنود المجهولين من أهل بلدك ، واذكر أن أرض مصر لم يحمها من قديم الأزل إلا أبناء مصر ، وأن هذا الوادى وادينا بحق ما سقينا من أرضه بدمائنا ، وما ضحينا فى سبيله من أهلنا وفلذات أكبادنا .